

أو

الداء والدواء

للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

المعروف بابن قيم الجوزية

تم تخريج أحاديث الكتاب من كتب

فضيلة الشيخ / محمد ناصر الدين الألباني

أعتنى به و خرج أحاديثه

أشرف علي خلف

دار الإتقان

الأسكندرية




الجواب الكافي
لمن سأل عن الدواء الشافي

طبعة مصححة مدققة

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٧٢٧٩

دار الإتقان

جمهورية مصر العربية- الإسكندرية

ش الصالحي- أمام مسجد التوحيد- محطة مصر

ت: ٤٩٦٤١٩٣

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الهادي إلى الصراط المستقيم والنهج القويم، والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الكتاب القيم المسمى بـ«الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، أو «الداء والدواء» للإمام العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله يعتبر من أعظم الكتب التي اعتنت بتزكية النفوس من أدران المعصية وعلاجها من أدواء الفتن التي لها تعلق بالقلب، وقد عرض فيها الإمام ابن القيم لأمراض القلوب من الآثام والمعاصي والأبواب التي ينفذ منها الشيطان لإصابة هذه القلوب، وبين رحمه الله أضرار المعصية على النفس والبدن، والدين والدنيا، وحذر من عقوبة المعاصي في الدنيا والآخرة، ثم أفاض رحمه الله في بيان الدواء الشافي من هذه العلل والأدواء بما احتواه الكتاب المبين وسنة سيد المرسلين ﷺ من هذه الأدوية. فمن أخذ بها فقد هدي إلى صراط مستقيم، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

عملي في الكتاب:

وقد قمت- بعون من الله- بتخريج أحاديث الكتاب، وآثاره، ما استطعت، وتبيين درجة كل حديث منها من الصحة والضعف- إن كان في غير الصحيحين.

وقمت بشرح بعض مفردات الأحاديث، والأشعار مما يغلب على ظني صعوبتها على القارئ، فما كان من حق وصواب فبفضل الله الكريم الرزاق، وما كان من تقصير أو قصور فإن الله غفور رحيم.

أسأل الله السميع المجيب أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يضع ذلك في ميزان حسناتنا يوم لقاه، وأن ينفع بذلك العمل كل من قام بكتابته ونشره،

والقارئ الكريم، إن الله هو نعم المولى ونعم النصير.

كتبه

أشرف علي خلف

الإسكندرية في ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٤هـ.

٥ من أغسطس سنة ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الإمام العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ تقي الدين أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية زاده الله من فضله: ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجل ابتلي ببلية وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد إلا توقدًا وشدة فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى.

فأجاب الشيخ الإمام، العالم، شيخ الإسلام، مفتي المسلمين، شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر أيوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى:

الحمد لله أما بعد فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»**[1].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»**[2].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٥)، وابن ماجة (٣٤٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- ورواه النسائي في «الكبرى» (٦٨٦٣)، وابن ماجة (٣٤٣٨)، وأحمد (١/ ٣٧٧)، وابن حبان (٦٠٧٥- إحسان)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٣٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه البوصيري في «الزوائد» (٤/ ٥٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٣٤)، و«الصحيحة» (٥١٨).

- ورواه أحمد (٥/ ٣٧١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٦) عن رجل من الأنصار، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٨٤): رجاله رجال الصحيح. اهـ.

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٤)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٦)، وأحمد (٣/ ٣٣٥)، وابن حبان (٦٠٦٣)، وأبو يعلى (٢٠٣٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٣)، والبيهقي (٩/ ٣٤٣).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[١] وفي لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، أو دواء، إلا داء واحداً**» . قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**الهرم**»[٢] قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم، قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العيّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده**»[٣]، فأخبر أن الجهل داء وأن شفاءه السؤال.

---

(١) رواه ابن ماجة (٣٤٣٨)، وأحمد (١/ ٣٧٧)، وقال البوصيري في «الزوائد» (٤/ ٥٠)، «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» اهـ. وليس فيه زيادة: «**علمه من علمه وجهله من جهله**» وهي عند الحاكم (٤/ ١٩٧)، والطبراني في «الأوسط» (١٥٦٤)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٨٤): «ورجال الطبراني ثقات»اهـ.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، وابن ماجة (٣٤٣٦)، والبخاري في «الأدب» (٢٩١)، والحميدي (٨٢٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٣)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

- «الهَرَم»: هو كبر السن، جعله رسول الله ﷺ من الأدواء، وإن لم يكن منها، لأنه مقدمة للموت فأشبه الداء.

(٣) رواه أبو داود (٣٣٦)، والبيهقي (١/ ٢٢٨)، والدارقطني في «السنن»، (١/ ١٩٠)، وقال: لم يروه عن جابر غير الزبير بن خريق، وليس بالقوي، وخالفه الأوزاعي، رواه عن عطاء عن ابن عباس، واختلف على الأوزاعي فقيل عنه عن عطاء، وقيل عنه: بلغني عن عطاء، وأرسل الأوزاعي آخره عن عطاء عن النبي ﷺ وهو الصواب. اهـ.

- ورواه أبو داود (٣٣٧)، وابن ماجة (٥٧٢)، وأحمد (١/ ٣٣٠)، والدارمي (٧٥٢)، والبيهقي (١/ ٢٢٦)، من طريق الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس به دون شطره الأخير، وقد صحح الألباني -رحمه الله- شطره الأول في صحيح أبي داود (٣٦٤)، وانظر تفاصيل المبحث في «الإرواء» (١٠٥).

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس لا للتبعيض فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يأيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: والله إني لأرقي ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لي جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة، فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا نفعل حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: «**وما يدريك أنها رقية؟**» ثم قال: «**قد أصبتم اقتسموا واضربوا لي معكم سهمًا**»[١].

فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن وهو أسهل دواء وأيسره ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء ومكثت

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١)، وأبو داود (٣٤١٨، ٣٩٠٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٦٦)، والبيهقي (٦/ ١٢٤).

بمكة مدة يعتريني أدواء ولا أجد طبيبًا ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيرًا عجيبًا فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا فكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية ولكن تستدعي قبول المحل وقوة وهمة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء.

وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف أثره عنه إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها.

كما في «مستدرك الحاكم» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه**» [1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٠٩)، من طريق صالح المُرِيّ عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة به، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وفي إسناده صالح بن بشير أبو بشير المري ضعفه ابن معين، والدارقطني، وقال أحمد: ليس هو صاحب حديث، وقال البخاري والفلاس: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك. انظر «ميزان الاعتدال» (٣/ ٣٩٨).

- ولكن للحديث شاهد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه بلفظ نحوه رواه أحمد (١٠/ ١٤٨)، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٤٨)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٢٢). قلت: وفي سنده ابن لهيعة، صدوق اختلط بعد احتراق كتبه.

فهذا دواء نافع مزيل (للداء) ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها.

كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [المؤمنون:٥١] وقال: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾**[البقرة:١٧٢]، ثم ذكر **«الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب! يا رب! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟!»**[١].

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «الزهد» لأبيه: «أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجًا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم: أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلي أكفًّا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم! ولن تزدادوا مني إلا بُعدًا»[٢].

وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء من البر، ما يكفي الطعام من الملح[٣].

فصل

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض»**[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٢/٣٢٨)، والدارمي (٢٧١٧)، وابن الجعد (٢٠٠٩)، والبيهقي في «الشعب» (١١٥٩).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص٦٩)، والبيهقي في «الشعب» (١١٥٧، ١١٥٨)، عن مالك بن دينار -رحمه الله-.

(٣) «صفة الصفوة» (١/٥٩٣).

(٤) رواه أبو يعلى (٤٣٩)، والحاكم (١/٤٩٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/١٧٢)، والقضاعي=

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه» .

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة ﵂ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة**»[1].

وفيه أيضًا من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء**»[2] .

وفيه أيضًا من حديث ثوبان عن النبي ﷺ: «**لا يرد القدر إلا الدعاء ولا**

= في «مسند الشهاب» (١٤٣)، والديلمي في «الفردوس» (٣٠٨٥)، وفي سنده محمد بن الحسن بن أبي يزيد، كذبه يحيى بن معين، وقال أحمد: ما أراه يساوي شيئًا ثم إنه منقطع بين علي بن الحسين وجده عليّ، كما قال الذهبي في «لسان الميزان» (٦/ ١٠٦)، والحديث أورده الألباني -رحمه الله- في «الضعيفة» (١٧٩)، وقال في «ضعيف الجامع» (٣٠٠١): موضوع.

(١) رواه الحاكم (١/ ٤٩٢)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٨)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢١٣)، والديلمي في «الفردوس» (٥٣٦٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٥٩)، من حديث عائشة ﵂، ومداره على زكريا بن منظور، قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن معين: ليس بشيء.

- ورواه أحمد (٥/ ٢٣٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٠٣)، من طريق الحكم بن موسى ثنا ابن عياش ثنا عبد الله بن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن معاذ به. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٤٦): وشهر بن حوشب لم يسمع من معاذ ورواية إسماعيل بن عياش عن أهل الحجاز ضعيفة. انتهى.

والحديث حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦١٦)، و«المشكاة» (٢٢٣٤).

(٢) رواه الحاكم (١/ ٤٩٣)، وفي سنده عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مليكة، قال في «التقريب» (١/ ٣٣٧): ضعيف، وقد رواه عبد الرحمن هذا عن شهر بن حوشب عن معاذ به، رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٦٢)، وقد تقدم الكلام عليه في الحديث السابق. ولكن الحديث يعتضد بطرقه وشواهده، وقد حسنه العلامة الألباني - رحمه الله- في «صحيح الجامع» (٣٤٠٣)، وفي «تخريج المشكاة» (٢٢٣٤).

يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[١].

فصل

ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء.

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٢]. وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ: «**لا تعجزوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد**»[٣].

وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢)، وابن ماجة (٩٠)، وابن حبان (٨٧٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٣٣)، والروياني في مسنده (٦٤٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٥)، وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبي. وحسنه البوصيري في «الزوائد» (٤/ ١٨٧). ورواه الترمذي (٢١٣٩). من حديث سلمان دون قوله: «**وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» وقال الترمذي: حسن غريب. وحسنه الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١٥٤)، وفي «صحيح الجامع» (٧٥٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجة (٣٨٢٧)، وأحمد (٢/ ٤٤٣)، والبخاري في «الأدب» (٦٥٨)، وأبو يعلى (٦٦٥٥)، والحاكم (١/ ٤٩١)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فإن أبا صالح الخوزي وأبا المليح الفارسي لم يذكرا بالجرح إنما هما في عداد المجهولين!!

قلت: أبو صالح الخوزي ضعفه ابن معين (ميزان الاعتدال) (٧/ ٣٨٣)، وأورده ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٩٤)، وقال في «التقريب» (٢/ ٤٣٦): لين الحديث. اهـ.

(٣) رواه الحاكم (١/ ٤٩٤)، وابن حبان (٨٧١)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٣)، وفي سنده عمر بن محمد بن صهبان. قال البخاري: منكر الحديث، وذكره العقيلي في «الضعفاء» (١١٨٢)، وقال: مجهول لا يعرف إلا به، ولا يتابع عليه.

(٤) موضوع: رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٦٩)، والبيهقي في «الشعب» (١١٠٨)، والحكيم الترمذي (٢/ ٢٨٢)، من طريق بقية بن الوليد عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة به. قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٩٩): قال أبي: هذا حديث منكر، نرى أن بقية دلسه عن ضعيف عن الأوزاعي. اهـ. وقد أخذ بقية هذا الحديث عن «يوسف بن السفر» فقد رواه العقيلي (٤/ ٤٥٢)، وابن عدي (٧/ ١٦٣)، من طريق بقية بن الوليد حدثنا يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن =

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مورق: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو يا رب يا رب لعل الله عز وجل أن ينجيه[١] .

فصل

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه: **أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة** فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرس غرسًا فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي**»[٢] .

وفي صحيح مسلم عنه: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل**»، قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟ قال: «**يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء**»[٣] .

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل؟**» قالوا: يا رسول الله كيف يستعجل؟ قال: «**يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي**»[٤] .

=الزهري عن عروة عن عائشة به. و«يوسف بن السفر» قال عنه البخاري: كان يكذب، وقال النسائي: متروك الحديث، ولعل يوسف هذا قد أخذه من كلام الأوزاعي فركب عليه ذلك الإسناد، يدل على ذلك ما رواه العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٤٥٢)، قال: حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا سنيد بن داود حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي قال: «كان يقال: أفضل الدعاء الإلحاح على الله تبارك وتعالى».

قال العقيلي: وحديث عيسى بن يونس أولى. اهـ.

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٣٠٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٥) في أخبار مورق العجلي.

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)، وأبو داود (١٤٨٤)، والترمذي (٣٣٨٧)، وابن ماجة (٣٨٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٩٦، ٤٨٧)، وابن حبان (٩٧٥).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٥) والبخاري في «الأدب» (٦٥٥)، وابن حبان (٨٨١)، والبيهقي (٣/ ٣٥٣).

(٤) رواه أحمد (٣/ ١٩٣، ٢١٠)، وأبو يعلى (٢٨٦٥)، وإسناده حسن.

فصل

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي الثلث الأخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والإقامة وأدبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم وآخر ساعة بعد العصر وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقة. واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة وأنها متضمنة للاسم الأعظم.

فمنها: ما في السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «**لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب**»، وفي لفظ: «**لقد سألت الله باسمه الأعظم**»[1].

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا**

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبو داود (١٤٩٣)، وابن ماجة (٣٨٥٧)، وأحمد (٥/ ٣٦٠)، والحاكم (١/ ٥٠٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

سئل به أعطى»[١] أخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده.

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة:١٦٣]، **وفاتحة آل عمران ﴿الم ۝١ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[٢].

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة، وأنس بن مالك، وربيعة بن عامر، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**»[٣].

يعني تعلقوا بها، والزموها، وداوموا عليها.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء وإذا اجتهد في الدعاء قال: «**يا حي يا قيوم**»[٤].

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٢٩٩)، والبخاري في «الأدب» (٧٠٥)، وأحمد (٣/ ١٥٨)، والبيهقي في «الدعاء» (١١٦)، وابن حبان (موارد- ٢٣٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» (١٢٣٣).

(٢) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجة (٣٨٠٥)، وأحمد (٦/ ٤٦١)، والدارمي (٣٣٨٩)، وابن حبان (٣٥٤٤)، من طريق عبيد الله بن أبي زياد عن شهر بن حوشب عن أسماء به. وصححه الترمذي، وفي ذلك نظر، عبيد الله بن أبي زياد ليس بالقوي «التقريب» (١/ ٣٧١)، وشهر بن حوشب صدوق كثير الإرسال والأوهام «التقريب» (١/ ٢٦٩)، ولكن للحديث شواهد تقويه، منها الحديث الآتي بعد ذلك عن أبي أمامة.

(٣) رواه الحاكم (١/ ٤٩٩)، من حديث أبي هريرة، وفيه رشدين بن سعد، وهو ضعيف.

- ورواه الترمذي (٣٥٢٥)، وأبو يعلى (٣٨٣٣)، والضياء في «المختارة» (٢٠٦٤)، من حديث أنس، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وليس بالمحفوظ».

- ورواه أحمد (٤/ ١٧٧)، والنسائي في الكبرى (٧٧١٦) من طريق ابن المبارك عن يحيى بن حسان الفلسطيني عن ربيعة بن عامر مرفوعًا به، وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات، فالحديث صحيح إن شاء الله.

(٤) رواه الترمذي (٣٤٣٦)، وفي سنده إبراهيم بن الفضل المخزومي، قال أحمد: ضعيف الحديث، وقال يحيى: ليس حديثه بشيء، وقال أبو زرعة: ضعيف، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف منكر الحديث.

وقد ضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٥٦).

وفيه أيضًا من حديث أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: **«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»**(١) .

وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: **«اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن: البقرة، وآل عمران، وطه»** ، قال القاسم فالتمستها فإذا هي آية ﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ (٢)

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: **«دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿أن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٧] **«إنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»** ، قال الترمذي: حديث صحيح (٣) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٤)، وفي سنده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف، وله شاهد من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: **«ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحت وأمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث...»**

- الحديث، رواه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧٦٠)، والحاكم، والضياء في «المختارة» (٢٣١٩)، وقال الحاكم: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، قلت: وليس كما قال: الحسن بن الصباح روى له البخاري دون مسلم، وزيد بن الحباب روى له مسلم دون البخاري، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٦٠): إسناده صحيح، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١٧) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، غير عثمان بن موهب وهو ثقة. اهـ.

والحديث حسنه العلامة الألباني -رحمه الله- في «صحيح الجامع» (٤٦٥٣).

(٢) رواه ابن ماجة (٣٨٥٦) من طريق عمرو بن أبي سلمة عن عبد الله بن العلاء عن القاسم موقوفًا عليه، وقال البوصيري في «الزوائد» (٤/ ١٤٤): إسناده ثقات موقوف.

ثم رواه ابن ماجة (٣٨٥٦) مرفوعًا من طريق عمرو بن أبي سلمة قال: فذكرته لعيسى بن موسى، فحدثني أنه سمع غيلان بن أنس يحدث عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا به وإسناده حسن: وغيلان بن أنس الكلبي مقبول كما في «التقريب» (١/ ٤٤٣)، ولم ينفرد به، بل تابعه عبد الله بن العلاء عن القاسم عن أبي أمامة به، رواه الحاكم (١/ ٥٠٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨٣٧١)، وفي «الكبير» (٨/ ٢٣٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٠٥)، وأحمد (١/ ١٧٠)، والحاكم (٢/ ٣٨٣)، وأبو يعلى (٧٧٢)، والبيهقي (١/ ٣٥٥)، والضياء في «المختارة» (١٠٤١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٨)، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، وهو ثقة. اهـ، والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٧٨).

وفي مستدرك الحاكم أيضًا من حديث سعد عن النبي ﷺ: **«ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرج الله عنه: دعاء ذي النون»** [١].

وفي صحيحه أيضًا عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول: **«هل أدلكم على اسم الله الأعظم؟ دعاء يونس»**، قال رجل: يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة؟ فقال: ألا تسمع قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٨] فأيما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد وإن برأ برأ مغفورًا له [٢].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: **«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم»** [٣].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «علمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين» [٤].

وفي مسنده أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم**

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٩١)، والحاكم (١/ ٥٠٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) حديث منكر رواه الحاكم في «مستدركه» (١/ ٥٠٦)، وفي سنده عمرو بن بكر بن تميم السكسكي الشامي متروك، كما في «التقريب» (١/ ٤١٩)، والحديث السابق يغني عنه.

(٣) رواه البخاري (٧٤٢٦)، ومسلم (٢٧٣٠)، والترمذي (٣٤٣٥) والنسائي في «الكبرى» (٧٦٧٤)، وابن ماجة (٣٨٨٣)، وأحمد (١/ ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٨)، وأبو يعلى (٢٥٤١)، وعبد بن حميد (٦٥٧)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٥٨).

(٤) رواه الترمذي (٣٥٠٤)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٧٣)، وأحمد (١/ ٩١)، وابن حبان (٨٦٥)، والضياء في «المختارة» (٥٥٩)، والحاكم (١/ ٥٠٨)، وصححه على شرط مسلم، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. والحديث أورده الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٢١).

الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا» فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ قال: «**بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»(١) ، قال ابن مسعود: ما كرب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح.

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المجابين في الدعاء» عن الحسن قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق وكان تاجرًا يتجر بمال له ولغيره ويضرب به في الآفاق وكان ناسكًا ورعًا فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، قال: ما تريد من دمي؟ شأنك بالمال، قال: أما المال فلي ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات. قال: صل ما بدا لك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات، فكان من دعائه في آخر سجوده أن قال: يا ودود يا ودود ياذا العرش المجيد، يا فعالاً لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وبملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني. ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصر باللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم. فقال: من أنت بأبي أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم؟ فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث، فقيل لي: دعاء مكروب فسألت الله أن يوليني قتله» ، قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبًا كان أو غير مكروب.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والبزار (البحر الزخار -١٩٩٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

فصل

وكثيرًا ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرًا لحسنته أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيبت دعوته فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجردًا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي فانتفع به فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب كان غالطًا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله.

فصل

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا بحده فقط فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به والساعد ساعد قوي والمانع مفقود حصلت به النكاية في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر.

فصل

وههنا سؤال مشهور، وهو: **أن المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع وإن لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله؟**

فظنت طائفة صحة هذا السؤال فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب

فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قـد قدرا لك فلابد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل وإن كـان الولد قد قدر لك فلابد منه وطأت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ وإن لم يقدر ذلك لم يكن فـلا حاجة إلى التزوج والتسري، وهلم جرا فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟! بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً وتكايس بعضهم وقال الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي من غيـر أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمسـاك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق.

وقـالت طائفـة أخـرى: أكيس من هؤلاء بل الدعـاء علامة مجردة نصـبها الله سبـحانه وتعالى أمـارة على قضاء الحـاجة فمـتى وفق الله العبد للدعـاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقـضت وهذا كما إذا رأينا غيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قـالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثـواب والكفر والمعاصي مع العـقاب هي أمارات محضـة لوقوع الثواب والعقاب لا أنها أسـباب له وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار والحرق مع الإحراق والإزهاق مع القتل ليس شيء من ذلك سببًا البتة ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا بمجرد الاقتـران العادي لا التأثير السببي وخالفوا بذلك الحس والعقـل والشرع والفطرة وسائر طوائف العـقلاء بل أضحـكوا عليهم العقلاء.

والصـــواب: أن ههنا قسمًا ثالثًا غيـر ما ذكره السائل وهو أن هذا المقدور قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء فلم يقدر مجردًا عن سـببه ولكن قدر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء وقدر حصول الزرع بالبذر وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح، وكـذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ودخـول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له.

وحينئذ فالـدعاء من أقوى الأسباب فإذا قدر وقـوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فـائدة في الدعـاء كما لا يقـال لا فائدة في الأكـل والشرب وجمـيع الحـركات والأعـمال وليـس من الأسبـاب أنفع من الدعـاء ولا أبلغ في حصـول المطلوب.

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوه وكـان أعظم جنديه وكان يقـول لأصحـابه: لستم تنصـرون بكثرة وإنما تنصرون مـن السماء وكـان يقول إني لا أحـمل هَمَّ الإجابة ولكن همَّ الدعـاء فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال:

لو لـم تُردْ نيل مـا أرجو وأطلبه من جود كفيك ما عودتني الطَّلَبا

فمن ألهم الدعاء فـقد أريد به الإجابة فإن الله سبـحانه يقول: ﴿**ادْعُـوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[غافر: ٦٠] وقال: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة: ١٨٦].

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[1].

وهذا يدل على أن رضـاه في سؤاله وطاعـته وإذا رضي الرب تبارك وتـعالى فكل خير في رضاه كما أن كل بلاء ومعصية في غضبه.

وقـد ذكر الإمـام أحـمد في «كـتاب الـزهد» أثرًا: «أنا الله لا إله إلا أنا، إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد»[2].

ولقد دل العقل والنـقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسـها ومللها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمـد في «الزهد» (ص ٥٢)، وأبو نعيم في «الحليـة» (٤/ ٤١) عن وهب بن منبه، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٨٤)، عن وهب نحوه.

ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه.

وقد رتب الله- سبحانه- حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٦] وقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥] وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥] وهذا كثير جداً.

وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩] وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١] وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦] ونظائره.

وتارة يأتي بلام التعليل كقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] وقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وتارة يأتي بأداة (كي) التي للتعليل كقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

الأَغْنيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر:٧] وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [آل عمران:١٨٢] وقوله: ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة:١٠٥] وقوله: ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف:٣٩] وقوله: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ**﴾ [آل عمران:١١٢].

وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهرًا أو محذوفًا كقوله تعالى: ﴿**فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكقوله تعالى: ﴿**أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٧٢] وقوله: ﴿**أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا**﴾ [الأنعام:١٥٦] أي كراهة أن تقولوا.

وتارة يأتي بفاء السببية كقوله: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا**﴾ [الشمس:١٤] وقوله: ﴿**فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً**﴾ [الحاقة:١٠] وقوله: ﴿**فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ**﴾[المؤمنون:٤٨] ونظائره.

وتارة يأتي بأداة (لما) الدالة على الجزاء كقوله: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ [الزخرف ٥٥]، ونظائره.

وتارة يأتي بـ(إن) وما عملت فيه، كقوله: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقوله في ضد هؤلاء: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الأنبياء:٧٧].

وتارة يأتي بأداة لولا الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله: ﴿**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وتارة يأتي بـ(لو) الدالة على الشرط كقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ [النساء:٦٦].

وبالجملة، فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال. ومن تفقه هذه المسألة وتأملها

حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزًا وتفريطًا وإضاعة فيكون توكله عجزًا وعجزه توكلاً بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر.

وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء، فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه في أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة ثم السنة فإنها شقيقة القرآن وهى الوحي الثاني ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق وأن الرسول حق وأن الله ينجز وعده لا محالة فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

فصل

الأمر الثاني: أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب.

وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولابد ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة وبالتسويف بالتوبة تارة وبالاستغفار باللسان تارة وبفعل المندوبات تارة وبالعلم تارة وبالاحتجاج بالقدر تارة وبالاحتجاج بالأشباه والنظائر تارة وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال أستغفر الله زال الذنب وراح هذا بهذا، وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»**[1] .

وقال لي آخر من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا[2] قد مُحي عنه ذلك، وقال لي آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليصنع ما شاء**»[3] . وقال: أنا لا أشك أن لي ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها وتعلق بها بكلتا يديه وإذ عوتب على الخطايا

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١)، والترمذي (٣٤٦٨)، وابن ماجة (٣٧٩٨)، والنسائي في «الكبرى» (٩٩٦٨)، وفي «المجتبى» (١٣٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٢، ٥١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي: سبعة أشواط.

(٣) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله، وقول الآخر: ترك الذنوب جرأة على مغفرة الله واستصغار لها. وقال محمد بن حزم: رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من العصمة!!

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء وأن الإيمان هو مجرد التصديق والأعمال ليست من الإيمان وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم والاستشفاع بهم والتوسل إلى الله بهم وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه وأن لهم عند الله مكانة وصلاحًا فلا يدعوه حتى يخلصوه كما يشاهد في حضرة الملوك، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلصه أبوه وجده لجاهه ومنزلته.

ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غني عن عذابه وعذابه لا يزيد في ملكه شيئًا ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا فيقول: أنا مضطر إلى رحمته وهو أغنى الأغنياء ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًا إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها فالله أكرم وأوسع، والمغفرة لا تنقصه شيئًا والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥]، قالوا: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته وهذا من أقبح

الجهل وأبين الكذب عليه فإنه يرضى بما يرضى به ربه عـز وجل والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفـسقة والخونة والمصرين على الكبائر فـحاشا رسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] وهذا أيضًا من أقبح الجـهل، فإن الـشرك داخل في هذه الآية فـإنه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كـان، ولو كانت الآية في حق غـيـر التائبين لبطلـت نصوص الوعـيد كلهـا وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره.

وكاغترار بعض الجُهَّال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] فيقول: كرمه. وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته وهذا جهل قبيح وإنما غره به الغرور وهو الشيطان ونفسه الأمـارة بالسوء وجهله وهواه وأتى سبحانه بلـفظ ﴿الْكَرِيمِ﴾ وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبـغي الاغترار به ولا إهمال حقه فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به.

وكاغترار بعـضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل:١٥، ١٦] وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤] ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم ولو كانت جـميع جهنم فهو سبحـانه لم يقل: لا يدخلها، بل قال: ﴿لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها فإن الصلي أخص من الدخول ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية الـتي بعدها لعلم أنه غير داخل فيـها فلا يكون

مضمونًا له أن يجتنبها.

وأما قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤] فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة[1] حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر[2] .

فرمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر.

فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مُصرٌّ عليها غير تائب منها هذا محال على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام على عمومه وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير فإذا لم يصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار وتعاونهما على عموم التكفير كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١] فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير، لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما وكلما قويت

---

(١) لحديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه في فضل صوم يوم عرفة. ويوم عاشوراء قال: قال رسول الله ﷺ: **«صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»** رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) لحديث أبي هريرة مرفوعًا: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»**. رواه مسلم (٢٣٣).

أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكيًا عن ربه: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[(1)] يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ويقبل توبته.

وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه وهذا موجود في الشاهد فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظنًّا بربه أطوعهم له كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه متعرض للعنته قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة وعادى أولياءه ووالى أعداءه وجحد صفات كماله وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟!! وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب؟!.

وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول: ﴿**وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [فصلت:٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا

---

(1) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣)، وابن ماجة (٣٨٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٣٠)، وأحمد (٢/٢٥١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

غرورًا وخداعًا من نفسه وتسويلاً من الشيطان لا إحسان ظن بربه.

فتأمل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة إليه وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاقي الله وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ويعلم سره وعلانيته ولا يخفى عليه خافية من أمره وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره معطل لحقوقه وهو مع هذا يحسن الظن به وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟!.

وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة دنانير فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها، قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله ثم سألني عنها فقال: «**ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة دنانير**»، فقلت: لا والله لقد شغلني وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها في كفه فقال: «**ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده**» وفي لفظ: «**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده**»[1].

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم فإن كان ينفعهم قولهم: حَسَّنَّا ظنوننا بك أنك لن تعذب ظالمًا ولا فاسقًا فليصنع العبد ما شاء وليرتكب كل ما نهاه الله عنه وليحسن ظنه بالله فإن النار لا تمسه، فسبحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد؟! وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿**أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟.

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه فالذي حمله على حسن العمل حسن الظن فكلما حسن

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٠٤)، وابن حبان (٦٨٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٤٠): رواه أحمد بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

ظنه بربه حسن عمله وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز كما في حديث الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»[1] .

وبالجملة، فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأتى ذلك ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده وأن رحمته سبقت غضبه وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر ووليه وعدوه فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض للعنته ووقع في محارمه وانتهك حرماته بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع وبدل السيئة بالحسنة واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ثم أحسن الظن بعدها فهذا هو حسن ظن والأول غرور والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة:٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا البطالين والفاسقين.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجة (٤٢٦٠)، وأحمد (٤/ ١٢٤)، والحاكم (١/ ٥٧)، (٤/ ٢٥١)، والطبراني (٧/ ٣٣٨، ٣٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٣٠٥)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤٧٢)، من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد به، وإسناده ضعيف من أجل أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف، كما في «التقريب».

والحديث صححه الحاكم على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بقوله: لا والله أبو بكر واهٍ. اهـ.

وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها.

فالعالم يضع الرجاء مواضعه والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة نحو هذا.

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء، فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي[1].

وكان يقول: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا خير من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف[2].

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟**

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٣٣).

(٢) «الزهد» لأحمد بن حنبل (ص ٢٥٩).

ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[١] .

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: مَرَّ رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: «**أُفٍّ لكَ**» فظننت أنه يريدني فقال: «**لا، ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعيًا إلى آل فلان فغل نمرة فَدُرِّعَ الآن مثلها من نار**»[٢] .

وفي مسنده أيضًا من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «**مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم**»[٣] .

وفيه أيضًا من حديثه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين كانوا يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»[٤] .

وفيه أيضًا عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك**»، فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟، قال: «**نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف**

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩)، وأحمد (٥/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧)، والحميدي (٥٤٧)، والبيهقي (١٠/ ٩٤).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٣٩٢)، وابن خزيمة (٢٣٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٣٢٣)، والروياني في «مسنده» (٧٢٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٣٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٣): رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه من لم أعرفه. اهـ.

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى (٣٩٩٢، ٣٩٩٦)، وابن حبان (موارد- ٣٥)، وعبد بن حميد (١٢٢٢)، والطيالسي (٢٠٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٨٦)، وقال الهيثمي في «المجمع». رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في «الأوسط» وأحد أسانيد أبي يعلى رجال الصحيح.

(٤) رواه أبو داود (٤٨٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٤)، والضياء في «المختارة» (٢٢٨٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨)، والبيهقي في «الشعب» (٦٧١٦)، وأورده العلامة الألباني في «الصحيحة» (٥٣٣).

(٥) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجة (٣٨٣٤)، وأحمد (٢/ ٤)، والحاكم (١/ ٥٢٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

شاء»(٥) .

وفيه أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «**مالي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟ قال: ما ضحك منذ خلقت النار**»(١) .

وفي صحيح مسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له: يا بن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا بن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط، فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط**»(٢) .

وفي المسند من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**»- مرتين أو ثلاثًا- ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا**

وللحديث شاهد من حديث ابن عمرو مرفوعًا بلفظ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ : «**اللهم مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك**» -رواه مسلم (٢٦٥٤).

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٤٨)، والديلمي في «الفردوس» (٤٦٦١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٨٥): رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهي ضعيفة. اهـ.

(٢) رواه مسلم (٢٨٠٧)، وابن ماجة (٤٣٢١)، وأحمد (٣/ ٢٠٣).

قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟، فيقولون: روح فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه إلى الأرض فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله- عز وجل- فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو محمد رسول الله فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله- عز وجل- فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينزعها كما يُنزع السفود من الصوف المبتل فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ

فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] **فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبديْ فافرشوا له من النار وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة**»[١].

وفي لفظ لأحمد أيضًا: «**ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبلاً كان ترابًا فيضربه ضربة حتى يصير ترابًا ثم يعيده الله كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين**»، قال البراء: «**ثم يفتح له باب إلى النار ويمد له من فراش النار**»[٢].

وفي المسند أيضًا عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بَصُرَ بجماعة فقال: «**علام اجتمع هؤلاء؟**» قيل: على قبر يحفرونه ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر فجثى على ركبتيه فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع فبكى حتى بل الثرى من دموعه ثم أقبل علينا فقال: «**أي إخواني لمثل هذا اليوم فأعدوا**»[٣].

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٣)، والنسائي (٢٠٠٠)، وابن ماجة (١٥٤٩)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، والطيالسي (٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٣١٩)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٥٩).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٩٦).

(٣) رواه ابن ماجة (٤١٩٥)، وأحمد (٤/ ٢٩٤) وفي إسناده محمد بن مالك، قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٥٠٤): صدوق يخطئ كثيرًا. وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد ضعيف فيه مقال، محمد بن مالك قال فيه أبو حاتم: لا بأس به. وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: لم يسمع من البراء بن عازب شيئًا، وذكره أيضًا في «الضعفاء» وقال: كان يخطئ كثيرًا لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. اهـ.

وفي المسند من حديث بريدة قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات: «**يأيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم؟**» ، قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «**إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم فأبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه: أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم**» ثلاث مرات(١).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مسكر حرام وإن على الله عز وجل عهداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار**»(٢) .

وفي المسند أيضًا من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطَّت السماء وحق لها أن تَئطَّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل**»(٣)،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/٢٤٨) من طريق أبي نعيم ثنا بشير حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه به، ورجاله ثقات، غير بشير بن المهاجر، قال في «التقريب»: صدوق لين الحديث، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/١٨٨)، ورجاله رجال الصحيح. اهـ.

- وقد رواه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣)، من حديث أبي موسى مرفوعًا بلفظ: «**إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم، واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق**».

(٢) رواه مسلم (٢٠٠٢)، والنسائي (٥٧٢٥)، وابن ماجة (٣٣٨٨)، وأحمد (٣/ ٣٦٠)، وابن حبان (٥٣٦٠)، والحاكم (٤/١٤٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨٤٤٦)، وروواه أبو داود (٣٦٨٠)، من حديث ابن عباس بنحوه.

(٣) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجة (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٣)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٥١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٠٧)، والبيهقي (٧/ ٥٢)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» من طريق إسرائيل ثنا إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر به، وإسناده حسن، رجاله ثقات غير إبراهيم بن مهاجر، وهو صدوق لين الحفظ، كما في «التقريب» (١/ ٩٤)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعضدُ.

وفي المسند أيضًا من حديث حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قال: «**يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملأ على الكافر نارًا**» والحمائل: عروق الأنثيين[(١)] .

وفي المسند أيضًا من حديث جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفي فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووضع في قبره وسوى عليه سبح رسول الله ﷺ فسبحنا طويلاً ثم كبر فكبرنا فقيل: يا رسول الله لما سبحت ثم كبرت فقال: «**لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه**»[(٢)] .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدموني: قدموني وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق**»[(٣)] .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : «**تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الرءوس كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه**

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٠٧)، من طريق موسى بن داود ثنا محمد بن جابر عن عمر بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة به. وإسناده ضعيف، من أجل محمد بن جابر، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال أحمد: لا يحدث عنه إلا من هو شر منه، ثم إنه منقطع بين أبي البختري، وحذيفة وانظر كلام الحافظ على هذا الحديث في «القول المسدد» (ص ٢٩).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٦٠، ٣٧٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٤٦): وفيه محمود بن محمد، قال الحسيني: فيه نظر، قلت الهيثمي ولم أجد من ذكره غيره. اهـ.

(٣) رواه البخاري (١٣١٤)، والنسائي (١٩٠٨)، وأحمد (٣/ ٤١، ٥٨)، وأبو يعلى (١٢٦٥)، وعبد بن حميد (٩٣٣)، من حديث أبي سعيد. ورواه النسائي (١٩٠٧)، وأحمد (٢/ ٢٩٢، ٤٧٤)، والبيهقي (٤/ ٢١)، وابن حبان (موارد - ٧٦٣)، من حديث أبي هريرة.

العرق»[1].

وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن؟ وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ**»، فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**»[2].

وفي المسند أيضًا عن ابن عمر يرفعه: «**من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقي الله تعالى وهو عليه غضبان**»[3].

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[4].

وفيهما أيضًا عنه عن النبي ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن**

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥٤)، والحاكم (٤/ ٥٧١)، وصححه ووافقه الذهبي.

- ورواه مسلم بنحوه (٢٨٦٤)، والترمذي (٢٤٢١)، وأحمد (٦/ ٤٣)، وابن حبان (إحسان - ٧٣٣٠)، من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

- وله شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه رواه أحمد (٤/ ١٥٧)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٠٢)، وابن حبان (إحسان - ٧٣٢٩)، والحاكم (٤/ ٥٧١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. اهـ. وقال الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (٣/ ٣٧١): وهو كما قالا.

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٢٦)، والحاكم (٤/ ٥٥٩)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفي سنده عطية العوفي وهو ضعيف، وللحديث شواهد فقد رواه الترمذي (٢٤٣١)، وابن ماجة (٤٢٧٣)، وأحمد (٣/ ٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٠٠٠)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وحسنه الترمذي.

وفي الباب من حديث زيد بن أرقم، وأنس، والبراء، وجابر رضي الله عنهم وقد ساقها العلامة الألباني بطرقها في «الصحيحة» (١٠٧٩)، وأورد الحديث في «صحيح الجامع» (٤٤٦٨).

(٣) رواه أحمد (٢/ ١١٨)، والبخاري في «الأدب» (٥٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (٨١٦٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٢)، و«صحيح الجامع» (٦٠٣٣).

(٤) رواه البخاري (٧٥٥٨)، ومسلم (٢١٠٨)، والنسائي (٥٣٧٦)، وأحمد (٢/ ٢٠، ٢٦، ٥٥، ١٢٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

- رواه البخاري (٧٥٥٧)، ومسلم (٢١٠٧)، والنسائي (٥٣٧٧)، وابن ماجة (٢١٥١)، وأحمد (٦/ ٨٠، ٢٢٣، ٢٤٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة»[١] .

وفيهما أيضًا عنه عن النبي ﷺ : «إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»[٢] .

وفي المسند عنه قال: «من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه» ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال: «صُمَّتَا إن لم أكن سمعت النبي ﷺ يقوله»[٣] .

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات كان حقًّا على الله أن يسقيه طينة الخبال» ، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «عصارة أهل جهنم»[٤] .

وفيه أيضًا عنه مرفوعًا: «من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦)، والترمذي (١٠٧٢)، والنسائي (٢٠٧٠)، وابن ماجة (٤٢٧٠)، وأحمد (٢/ ١٦، ٥٠)، وابن حبان (٣١٣٠)، والطيالسي (١٨٣٢)، وعبد بن حميد (٧٣٠)، وأبو يعلى (٥٨٣٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٤)، ومسلم (٢٨٥٠)، وأحمد (٢/ ١١٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه أحمد (٢/ ٩٨)، من طريق: أسود بن عامر ثنا بقية بن الوليد عن عثمان بن زفر عن هاشم عن ابن عمر به، وإسناده واهٍ، بقية بن الوليد ثقة مدلس، وقد عنعنه، وهاشم هذا مجهول كما في «تعجيل المنفعة» (١/ ٤٢٨)، و «لسان الميزان» (٣/ ٢٦١)، وقد رواه ابن حبان في «الضعفاء» من طريق عبد الله بن أبي علاج عن مالك عن نافع عن ابن عمر به، ثم قال ابن حبان: هذا الحديث ليس من أحاديث رسول الله ﷺ وعبد الله يروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم فلا يشك السامع أنه كان يصنعه. اهـ. وانظر «العلل المتناهية» (٢/ ٦٨٤)، و«نصب الراية» (٢/ ٣٢٥).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٥)، والحاكم (٤/ ١٤٦)، والمروزي في «الصلاة» (٩٢٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣٩٩)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٧٠): رواه أحمد ورجاله ثقات.

الله عليه، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: **فإن عاد كان حقًّا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة**» (١).

وفي المسند أيضًا من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات مدمنًا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة**»، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: «**نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن**» (٢).

وفيه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فإما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه أو آخذ بشماله**» (٣).

وفي المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم**

---

(١)رواه أحمد (٢/ ٢٥)، وابن ماجة (٣٣٧٧)، والدارمي (٢٠٩١)، وابن حبان (موارد - ١٣٧٨)، والحاكم (١/ ٣٠)، من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه الحاكم. وصححه الألباني -رحمه الله- في «صحيح الجامع» (٦١٨٩).

- ورواه الترمذي (١٨٦٢)، وأحمد (٢/ ٣٥)، وأبو يعلى (٥٦٨٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٩٠)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٧٠٥٨)، من حديث ابن عمر، وحسنه الترمذي. وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٨٨).

(٢)رواه أحمد (٤/ ٣٩٩)، والحاكم (٤/ ١٤٦)، وابن حبان (موارد - ١٣٨٠)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وفي سنده أبو حريز عبد الله بن حسين الأزدي مختلف فيه، وانظر «تهذيب التهذيب» (٥/ ١١٤)، وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٠٠٠): صدوق يخطئ. اهـ.

(٣)رواه أحمد (٤/ ٤١٤)، وابن ماجة (٤٢٧٧)، من طريق علي بن علي بن رفاعة عن الحسن البصري عن أبي موسى مرفوعًا به، وقال البوصيري في «الزوائد» (٤/ ٢٥٤): رجاله ثقات إلا أنه منقطع، وقال الترمذي: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى.

ورواه الترمذي (٢٤٢٥)، من طريق علي بن علي بن رفاعة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعًا به، ثم قال: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

- ورواه ابن المبارك في «الزهد» (ص ١١٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٤)، من طريق علي بن رفاعة عن الحسن عن أبي موسى موقوفًا، قال الدارقطني في «العلل» (٧/ ٢٥١)، «والموقوف هو الصحيح» اهـ، ورواه الطبري في «التفسير» (٢٩/ ٥٩)، موقوفًا أيضًا على أبي موسى. ثم رواه بسند صحيح عن قتادة بنحوه. ورواه (٢٩/ ٥٩) عن ابن مسعود موقوفًا به، وقال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤٠٣): «وأخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عن عبد الله بن مسعود». اهـ.

ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلاً «كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها»[١] .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجوز، ودعاء الرسل يومئذ: «اللهم سلم سلم، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجون حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجنهم قد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل»[٢] .

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى قُتلت، قال: كذبت، ولكن قاتلت ليقال هو جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، فقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال هو عالم، فقد قيل، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٨٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٨٩): رواه أحمد والطبراني في «الأوسط»، ورجالهما رجال الصحيح، غير عمران بن داود القطان، وقد وثق. اهـ.

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٨٨)، وابن حبان (٢٤٢٩)، وأحمد (٢/ ٢٧٥، ٢٩٣، ٥٣٣)، وأبو يعلى (٦٣٦٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧٥)، وابن مندة في «الإيمان» (٨٠٢)، والمروزي في «الصلاة» (٢٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟. فقال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، وفي لفظ «**فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة**»[(١)].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم من الكذابين وادعى أنه منهم وليس منهم فخير الناس بعدهم: العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار**»[(٢)].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»[(٣)].

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية قال: فإنها قد**

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، وأحمد (٢/ ٣٢٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٤)، والترمذي (٢٤١٩)، وأحمد (٣/ ١٣)، وابن حبان (٧٣٦١)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩٣٥).

(٣) رواه البخاري (٣٠٢٤)، وأحمد (٢/ ٩٩)، من حديث ابن عمر وليس من حديث أبي هريرة، والله أعلم.

وله شاهد من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه بلفظ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه من سبع أرضين**». رواه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها» [١] .

وفي المسند عن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: «**لا تشرك بالله شيئًا وإن قتلت أو حرقت، ولا تعقن والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرًا، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن المعصية تحل سخط الله**» [٢] .

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ويرسل نفسه في المعاصي ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر وقد دخلت امرأة النار في هرة [٣]، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا [٤] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية حدثنا الأعمش عن سلمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «**دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب**»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء.**

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، والترمذي (٢٥٨٩)، وأحمد (٢/ ٣١٣)، وابن حبان (٧٤٦٢)، والدارمي (٢٨٤٧).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٨)، والحاكم (٤/ ٤١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢١٥): رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات إلا أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير لم يسمع من معاذ.

- وله شاهد من حديث أبي الدرداء بنحوه رواه البخاري في «الأدب» (١٨)، والمروزي في «الصلاة» (٩١١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢١٦)، رواه الطبراني وفيه شهر بن حوشب وحديثه حسن. اهـ.

(٣) لقوله ﷺ: «**دخلت النار امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**» رواه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) لقوله ﷺ: «**كلا والذي نفس محمد بيده، إن الشملة لتلتهب عليه نارًا، أخذها من المغانم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم**» رواه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا له: قرب ولو ذبابًا، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا من دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة»[1]، وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير ما به ويظن ذلك أنه من محبة الله له وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك وهذا من الغرور، وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج ثم تلا قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾** [الأنعام: ٤٤]»[2].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فإنما هو استدراج منه يستدرجك به وقد قال تعالى: **﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [الزخرف: ٣٣: ٣٥].

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: **﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا﴾** [الفجر: ١٥: ١٧] أي: ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٢٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٤٣). عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفًا، وإسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٤٥): رواه الطبراني في «الأوسط» من شيخه الوليد بن العباس المصري، وهو ضعيف. اهـ.

أكرمـته، ولا كل من ابتليـته وضيـقت عليه رزقـه أكون قد أهنتـه، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**» [1].

وقال بعض السلف: رُبَّ مستـدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

فصل

وأعظم الناس غرورًا من اغتـر بالدنيا وعاجلها فـآثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة حـتى يقول بعض هؤلاء: الدنيـا نقد والآخرة نسـيئة ،والـنقد أنفع من النسيئة.

ويقول بعضهم: ذرة منقودة ولا درة مـوعودة. ويقول آخر: منهم لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها ولا أدع اليقين بالشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضـرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه وهو بين مصدق ومكذب.

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة، لأنه أقدم على علم وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

وقول هذا القائل: النقد خير من النسيئة.

جوابه: أنه إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، وأبو نعـيم في «الحلية» (٤/ ١٦٥)، والبيهـقي في «الشعب» (٥٥٢٤)، وقال في «المجمع» (١/ ٥٣): وإسناد بعض رجاله مستور وأكثرهم ثقات. اهـ.

والحديث ضعـفه الألباني في «ضعـيف الجامع» (١٦٢٥)، و«الضعيـفة» (٢٨٢٢)، ورجح الدارقطني وقفه في «العلل» (٥/ ٢٦٩).

وأفضل فهي خير فكيف والدنيا كلهـا من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة.

كما في مسند الإمام أحمد والترمـذي من حديث المستورد بن شداد قال: قال رســول الله ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»**[1].

فإيثار هذا النقـد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقـبح الجهل وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجمـوعها إلى الآخرة فما مقدار عمر الإنسـان بالنسبة إلى الآخرة فأيما أولى بالعاقل: إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة أم ترك شيء صغير حقير منقطع عن قرب لـيأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمده؟.

فأما قول الآخر: لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه.

فيـقال له: إمـا أن تكون على شك من وعـد الله ووعيده وصـدق رسله، أو تكون على يقين من ذلك، فإن كنت على يقين من ذلك فـما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له.

وإن كنت على شك فـراجع آيات الرب تعـالى الدالة على وجـوده، وقـدرته ومشيئته، ووحدانيته، وصـدق رسله، فيما أخبروا به عن الله وتجرد وقم لله ناظرًا أو مناظرًا، حتى يتبين لك أن ما جـاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه وأن خـالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعـالى، ويتقدس، ويتنزه على خلاف ما أخبرت به رسله عنه. ومن نسبه إلى غـير ذلك فقد شتمه وكذبه، وأنكر ربوبيته وملكه، إذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة، أن يكون الملك الحق عاجـزًا أو جاهلاً لا يعلم شـيئًا و لا يسـمع، ولا يبصر ولا يتـكلم، ولا يأمر ولا ينهى، ولا يثـيب ولا يعاقب، ولا يعـز من يشاء، ولا يذل من يشـاء، ولا يرسل

(١) عزوه لأحمد والتـرمذي فيه تقصير، فقـد رواه مسلم (٢٨٥٨)، ورواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجـة (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٩)، والحاكم (٤/ ٣١٩)، وابـن حبان (٤٣٣٠)، والحمـيدي (٨٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٠١).

رسله إلى أطراف مملكته وجوانبها ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدىً ويخليهم هملاً، وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه؟!.

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ حالة كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عنى به هذه العناية ونقله في هذه الأحوال وصرفه في هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى، لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرفه حقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره ومالا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه.

وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب «إيمان القرآن» عند قوله: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ [الحاقة: ٣٨: ٤٠] وذكرنا طرفًا من ذلك عند قوله: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١] وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله.

فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين تقدير تصديقه ويقينه وتقدير تكذيبه وشكه.

فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟

وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدًا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيًا غافلاً لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبته؟.

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانًا بعد علمه بقدرة الرب

على ذلك ليزاد طمأنينة ويصير المعلوم غيبًا شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاين**»[1].

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أوغيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع وغلبات الهوى واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان واستبطاء الوعد وطول الأمل ورقدة الغفلة وحب العاجلة ورخص التأويل وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة الدين، فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

فصل

فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه هاديًا له إلى الطاعة وزاجرًا له عن المعصية فهو رجاء صحيح. ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطًا فهو المغرور.

ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمّل أن يعود عليه من مغلّها ما ينفعه فأهملها

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وابن حبان (٦٢١٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٨٢)، والضياء في «المختارة» (٧٦)، والمروزي في «الصلاة» (٧٦٦)، من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

– ورواه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٤٣)، والضياء في «المختارة» (١٨٢٧)، والخطيب في «التاريخ» (٣/ ٢٠٠)، من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٥٣): ورجاله ثقات.

ولم يبذرها ولم يحرثـها وحسن ظنه بأنه يأتي من مغلهـا ما يأتي من حرث وبذر، وسقي، وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسن ظنه وقوي رجـاؤه بأن يجيئه ولد من غير جـماع، أو يصير أعلم أهل زمانه مـن غير طلب العلم وحـرص تام عليه وأمثـال ذلك. فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه وبالله التوفيق.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فتأمل كيف جـعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات؟.

وقال المغترون: إن المفرطين المضيـعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتـجرئين على محارمـه، أولئك يرجون رحمة الله. وسـر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسـباب التي اقتضتها حكـمة الله في شرعه، وقدره، وثوابه وكـرامته فـيأتي العبـد بها ثم يحسن ظنه بـربه ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويصرف ما يعرضها ويبطل أثرها.

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه. الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأمـا رجاء لا يـقارنه شيء مـن ذلك فهـو من باب الأمـاني والرجـاء شيء

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٧٧)، وعبد بن حميد (١٤٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٨٨١)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: هذا حسن غريب، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٣٥)، وفي «صحيح الجامع» (٦٠٩٨).

قال المنذري: معنى الحديث أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفًا من القواطع والعوائق. اهـ. من «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٣١).

والأماني شيء آخر فكل راجٍ خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

وهو- سبحانه- كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة ﵂ قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات**»(١). وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة ﵃ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف. ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن فهذا الصديق ﵁ يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن» ذكره أحمد عنه(٢).

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»(٣).

---

(١)رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجة (٤١٩٨).

(٢)رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٠٨)، وذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٢٥١).

(٣)رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣، ٩/ ١٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٤٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٠٢): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن محمد بن حيان، وقد وثقه ابن حبان. اهـ.

وكان يبكي كثيرًا ويقول: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»[١].

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأتى بطائر فقلبه ثم قال: «ما صِيدَ من صيد ولا قُطعت شجرة من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح»[٢].

فلما احتضر قال لعائشة: «يا بنية إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد فأسرعي به إلى ابن الخطاب».

وقال: «والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتُعضد»[٣].

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: «ليتني خَضِرَةٌ تأكلني الدواب»[٤]، وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور:٧] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: «ويحك! ضع خدي على الأرض، عساه أن يرحمني» ثم قال: «بل ويل أمي، إن لم يغفر لي» ثلاثًا، ثم قضى[٥].

وكان يمر بالآية في ورده بالليلة فتخيفه، فيبقى في البيت أيامًا يعاد، يحسبونه مريضًا. وكان في وجهه ﷺ خطان أسودان من البكاء[٦].

وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح وفعلَ وفعل فقال: «وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر»[٧].

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦١- ٣/ ١٠٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٩): رواه أبو يعلى، وفيه يزيد الرقاشي وقد وثق على ضعفه. اهـ.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١١٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٩٣).

(٣،٤) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١١٢)، وذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٢٥١). من رواية الحسن عن أبي بكر، ولم يسمع منه.

(٥) صفة الصفوة (١/ ٢٩١).

(٦) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٣١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥١)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٦).

(٧) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٥١).

وهذا عثمـان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حـتى يبل لحيته[١]، وقال: «لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير»[٢].

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه. وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتبـاع الهوى، قال: «فـأما طول الأمل فـينسي الآخرة، وأمـا اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون فكونوا من أبناء الآخـرة، ولا تكونوا من أبناء الدنـيا، فـإن اليوم عـمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل»[٣].

وهذا أبـو الدرداء رضي الله عنه كان يقول: «إن أشد ما أخـاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علمت فكيف عملت فيما علمت؟.

وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعـد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة ولا شربتم شـرابًا على شهوة ولا دخلتم بيـتًا تستظلون فيـه ولخرجتم إلى الصعـيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل».

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع[٤].

وكان أبو ذر يقول: «يا ليتني كنت شجرة تعضد، وددتُ أني لم أخلق[٥].

وعرضت عليـه النفقة فـقال: عندنا عنز نحلبـها وحمـر ننقل عليها ومـحرر يخدمنا وفضل عباءة وإني أخاف الحساب فيها[٦].

---

(١) رواه التـرمذي (٢٣٠٨)، وابن مـاجـة (٤٢٦٧)، وأحمـد (١/ ٦٣)، والضـيـاء في «المختـارة» (٣٨٩)، والبيهـقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٥٦)، والقضاعي في «مـسند الشهاب» (٢٤٨)، جمـيعًا من طريق هشام بن يوسف عن عـبد الله بن بصير القـاص عن هانئ مولى عثـمان، قال: كان عـثمان...، وإسنادُه حسن رجـاله ثقات، غير هانئ مـولى عثمان قـال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حـبان في الثقات «تهذيب التهذيب» (١١/ ٢٣)، وفي «التقريب» (١/ ٥٧٠)، صدوق، والحديث حسنه الترمذي.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحليـة» (١/ ٦٠)، وذكره الهيثـمي في «المجمع» (١٠/ ٢٣٥)، من رواية ابن مسعود، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، إلا أني لم أجد للحسن البصري سماعًا من ابن مسعود. اهـ.

(٣) صفة الصفوة (١/ ٣٢١).

(٤) «صفة الصفوة» (١/ ٦٣٠)، و«الحلية» (١/ ٢١٦).

(٥) «صفة الصفوة» (١/ ٧٥٦).

(٦) «صفة الصفوة» (١/ ٥٩٥).

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [الجاثية: ٢١] وجعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: «وددت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي» وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في صحيحه: «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا.

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ: كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: «أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ؟ يعني: في المنافقين فيقول: لا ولا أُزَكِّي بعدك أحدًا».

فسمعت شيخنا يقول: ليس مراده أني لا أبرئ غيرك من النفاق بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب فكل من سألني هل سماني لك رسول الله ﷺ فأزكيه.

قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**سبقك بها عكاشة**»[1] ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الإمساك أولى والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس، ورواه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦)، من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم (٢١٨)، من حديث عمران بن حصين.

فصل

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته.

فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولابد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر.

وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان كفرًا وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان فهان على الله غاية الهوان وسقط من عينه غاية السقوط وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ومقته أكبر المقت فأرداه فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة؟ فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رءوس الجبال وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟.

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطَّعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟.

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم

فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعًا ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولإخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد؟.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رءوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟.

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟.

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا؟.

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟.

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذرية والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرًا؟.

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧]؟.

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: «لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»[١].

---

(١) «حلية الأولياء» (١/٢١٦)، و«صفة الصفوة» (١/٦٣٨).

وقال علي بن الجعد: أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا البختري يقول: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «**لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم**»[١].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده**» فقلت: يا رسول الله أما فيهم يومئذٍ أناس صالحون؟ قال: «**بلى**»، قلت: فكيف يصنع بأولئك. قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**»[٢].

وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ: «**لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قُرَّاؤُها أُمراءَهَا. وما لم يزك صلحاؤها فجارها، وما لم يُهن خيارها أشرارها فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر**»[٣].

وفي المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[٤].

وفيه أيضًا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها**» قلنا: يا رسول الله، أمن قلة يومئذ؟

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٧)، وأحمد (٢٦٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٠٧)، و«تحقيق المشكاة» (٥١٤٦).

- قوله: «**يعذروا من أنفسهم**» يقال: «أعذر فلان من نفسه إذا أمكن منها، يعني أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم، فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم عذر، كأنهم قاموا بعذرهم من ذلك». اهـ. من «النهاية في غريب الحديث لابن الأثير».

(٢) رواه أحمد (٦/ ٣٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٢٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٠٩)، من حديث أم سلمة، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٨): رواه أحمد بإسنادين، رجال أحمد رجال الصحيح. اهـ. وله شاهد من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم. إذا كثر الخبث**» رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) رواه الإمام أبو عمر الداني المقرئ في «السنن الواردة في الفتن» (٣٣١)، وابن المبارك في «الزهد» (٨٢١)، وإسناده ضعيف.

(٤) سبق تخريجه.

قال: «**أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن**» قال: وما الوهن؟ قال: «**حب الحياة وكراهية الموت**»[1].

وفي المسند من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»[2].

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين، ويلبسون للناس مُسُوكَ الضأن من اللين ألسنتهم أحلى منَ السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يغترون وعلي يجترئون؟ فبي حلفت، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران**»[3].

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال علي: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء، منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود»[4].

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الربا والزنا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها»[5].

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٢)، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٣٥)، وفي «الصحيحة» (٩٥٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٠٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٤١٩).

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» (١٩٠٨)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٢٣٦)، وإسناده ضعيف من أجل عبد الله بن دكين، قال أبو زرعة: ضعيف، وقال النسائي: ليس بثقة «ميزان الاعتدال» (٤/ ٩٣)، وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٠٢): صدوق يخطئ.

(٥) «صفة الصفوة» (١/ ٤٢٠).

ومن مراسيل الحسن: «إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا الأرحام، لعنهم الله عز وجل عند ذلك، فأصمهم وأعمى أبصارهم»(١).

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: «كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «**يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء فلولا البهائم لم يمطروا ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل- في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم**»(٢) .

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيرًا، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرنَّه على الحق أطرًا أو ليضربن الله**

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (١٥٧٨)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٣١٠)، عن سلمان رضي الله عنه موقوفًا، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٨٧)، رواه الطبراني في «الأوسط» و «الكبير»،وفيه جماعة لم أعرفهم. اهـ.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٤)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٣٢٧)، والديلمي في «الفردوس» (٨٢٠٩)، وصححه الألباني -رحمه الله- في «صحيح الجامع» (٧٨٥٥)، وفي «الصحيحة» (١٠٦).

بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[1] .

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أوحى الله إلى يوشع بن نون: «أني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم. وستين ألفًا من شرارهم. قال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم»[2] .

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال: «بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية: أن دمراها بمن فيها فوجدا فيها رجلاً قائمًا يصلي في مسجد، فقالا: يا رب إن فيها عبدك فلانًا يصلي فقال الله عز وجل: دمراها ودمراه معهم فإنه ما تمعر وجهه في قط»[3] .

وذكر الحميدي عن سفيان بن عيينة قال: حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر: «إن ملكًا أمر أن يخسف بقرية فقال: يا رب إن فيها فلانًا العابد فأوحى الله عز وجل إليه: أن به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه في ساعة قط»[4] .

وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال: «لما أصاب داود الخطيئة قال: يا رب اغفر لي. قال: قد غفرت لك وألزمت عارها بني إسرائيل قال: يا رب كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحدًا، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيري؟ فأوحى الله إليه: إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار»[5] .

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٨)، وابن ماجة (٤٠٠٦)، وأحمد (١/ ٢٩١) من طريق علي بن بذيمة عن أبي عبيدة بن عبد الله عن ابن مسعود، وإسناده منقطع، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه، والحديث ضعفه العلامة الألباني رحمه الله في «ضعيف الجامع» (١٨٢٢)، و«الضعيفة» (١١٠٥).

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (٩٤٢٨)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٩٩).

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» (٧٥٩٥) عن جابر ﷺ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٧٠): رواه الطبراني في «الأوسط» من رواية عبيد بن إسحاق العطار عن عمارَ بن سيف، وكلاهما ضعيف، ووثق عمارَ بن سيف بن المبارك وجماعةٌ، ورضي أبو حاتم عبيد بن إسحاق. اهـ.

(٤) انظر ما قبله.

(٥) هذا خبر من الإسرائيليات التي أكثر من روايتها وهب بن منبه، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣١).

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك: «أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل في سمائه فقال للأرض: تزلزلي بهم فإن تابوا ونزعوا، وإلا هدميها عليهم. قال: يا أم المؤمنين، أعذابًا لهم؟ قالت: بلى، موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالاً وعذابًا وسخطًا على الكافرين، فقال أنس: ما سمعت حديثًا بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحًا به مني بهذا الحديث»[(١)].

وذكر ابن أبي الدنيا حديثًا مرسلاً: «أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ فوضع يده عليها ثم قال: «**اسكني فإنه لم يأن لك بعد**» ثم التفت إلى أصحابه فقال: «**إن ربكم ليستعتبكم فأعتبوه**» ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال: يأيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبدًا»[(٢)].

وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا: أن الأرض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده عليها، وقال: ما لك؟ ما لك؟ أما أنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق**»[(٣)].

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت: «زلزلت المدينة على عهد عمر فقال: يأيها الناس ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم لئن عادت لا أساكنكم فيها»[(٤)].

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٧٢٩)، ومن طريقه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥١٦)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: بل أحسبه موضوعًا على أنس، ونعيم منكر الحديث إلى الغاية، مع أن البخاري روى عنه، وبقية مدلس وقد عنعنه». اهـ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٣)، والبيهقي (٣/ ٢٤٢)، وأبو يعلى (١١/ ٢٥٩)، وانظر «السلسلة الصحيحة» للألباني -رحمه الله- (٨٧٥).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) «الفتن» لنعيم بن حماد (١٧٣١).

وقال كعب: «إنما تزلزل الأرض إذا عُمل فيها بالمعاصي فترعد فرقًا من الرب جل جلاله أن يطلع عليها».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: «أما بعد فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا فمن كان عنده شيء فليتصدق به فإن الله عز وجل يقول: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾[الأعلى: ١٤، ١٥] وقولوا كما قال آدم: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[الأعراف: ٢٣] وقولوا كما قال نوح: ﴿**وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[هود: ٤٧] وقولوا كما قال يونس: ﴿**لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[الأنبياء: ٨٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم**» رواه أبو داود بإسناد حسن[١].

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال: لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وأخذوا أذناب البقر أنزل الله عليهم من السماء بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**»[٢].

وقال الحسن: «إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس».

---

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٢)، وأحمد (٢/ ٢٨، ٤٢، ٨٤)، وأبو يعلى (٥٦٥٩)، والروياني في «مسنده» (١٤٢٢)، والبيهقي (٥/ ٣١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٤)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٠٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٢٣)، و«الصحيحة» (١١).

(٢) انظر ما قبله.

ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بختنصر فقال: «بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا» .

وقال بختنصر لدانيال: ما الذي سلطني على قومك؟ قال: «عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم» .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبي ﷺ: «**إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال وأعقم أرحام النساء، فتنزل النقمة وليس فيهم مرحوم**»[1].

وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأت في الحكمة يقول الله عز وجل: «أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم»[2].

ومن مراسيل الحسن: «إذا أراد الله بقوم خيرًا جعل أمرهم إلى حلمائهم وفيئهم عند سمحائهم وإذا أراد الله بقوم شرًّا جعل أمرهم إلى سفهائهم، وفيئهم عند بخلائهم»[3].

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة، قال: قال موسى: «يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض فما علامة غضبك من رضاك؟» قال: «إذا استعملت

---

(١) ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٥٤٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٨٨، ٦/ ١٧٢)، عن أبي الدرداء مرفوعًا به، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٤٩): رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه وهب بن راشد وهو متروك. وانظر «العلل المتناهية» (٢/ ٧٦٨).

- ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٧٢)، عن مالك بن دينار، وقال الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢٠٥): ولا يصح هذا الحديث مرفوعًا، فرواه جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار، وهو أشبه بالصواب. اهـ.

ورواه ابن أبي شيبة (٧/ ٦٩)، عن عبد الله بن نمير عن مالك بن مغول، وإسناده صحيح.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» (٧٣٩٢)، عن عمر موقوفًا بنحوه، وقال الذهبي في «لسان الميزان» (٦/ ٢٦٨): منكر.

عليكم خيـاركم فهـو علامة رضـائي عنكم، وإذا استعـملت عليكم شراركم فـهو علامة سخطي عليكم»[١] .

وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عـياض قال: أوحى الله إلى بعض الأنبياء إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني.

وذكر أيضًا من حديث ابن عـمر يرفعه: «**والذي نفسي بيـده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوانًا خونة وعرفاء ظلمة وقراء فسقة سيماهم سيماء الرهبان وقلوبهم أنتن من الجيف أهواؤهم مختلفة فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون فيها والذي نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة حتى لا يقال: الله الله. لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم**».

وفي معجم الطبـراني وغيره من حديث سعـيد بن جبير عن ابن عـباس قال: قال رسـول الله ﷺ : «**ما طفف قوم كيلاً، ولا بخسوا ميزانًا إلا منعهم الله عز وجل القطر، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون، ولا ظهر في قوم القتل - يقتل بعضهم بعضًا - إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم**»[٢] ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به.

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٢٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٩٠)، وعزاه المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٦٢) لابن عساكر.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٦٠) بلاغًا عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي سنده انقطاع، ورواه أيضًا البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٤٦)، ورجح أبو حاتم وقفه على ابن عباس، كما في «علل ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٢٢).

وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء فما تكلم حتى توضأ وخرج فلصقت بالحجرة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**يأيها الناس إن الله عز وجل يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصركم وتسألوني فلا أعطكم**»(١) .

وقال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ولا تأمر فيه ولا تنهى عنه خوفًا ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا.

وقال: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه.

وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق: «أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه**» وفي لفظ: «**إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**»(٢) .

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة**»(٣).

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/١٥٩)، وابن حبان (إحسان-٢٩٠)، والبيهقي (١٠/٩٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/٢٦٦): روى ابن ماجة بعضه، ورواه أحمد والبزار، وفيه عاصم بن عمر أحد المجاهيل.

(٢) رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، وابن ماجة (٤٠٠٥)، وأحمد (١/٥، ٧)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٧٠)، وفي سنده مروان بن سالم الغفاري: متروك، وانظر «مجمع الزوائد» (٧/٢٦٨).

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: «توشك القرى أن تخرب وهي عامرة» قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: «إذا علا فجارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها»(١).

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية أن النبي ﷺ قال: «**سيظهر شرار أمتي على خيارها حتى يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم**»(٢).

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال: «**يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء**» قيل: مما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره**»(٣).

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبي ﷺ قال: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، هم أعز وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب**»(٤).

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، إني كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(٥).

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال: «كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء فيعظهم ويذكرهم بأيام الله فرأى بعض بنيه يومًا يغمز

= والصواب أنه من كلام بلال بن سعد -أحد الزهاد- فقد رواه عنه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٦٠١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٠٩)، وذكره المزي في «التهذيب» (١٢/ ٩٠)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» في ترجمة بلال بن سعد.

(١) انظر: «الفتن» لنعيم بن حماد (٤٠٢).

(٢) المصدر السابق: (٤٠١)، وإسناده واهٍ.

(٣) «مسند الفردوس» للديلمي (٨٦٧١)، وسنده ضعيف مرسل.

(٤) رواه أبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجة (٤٠٠٩) ورواه أحمد (٤/ ٣٦٤)، والطيالسي (٦٦٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٣١) وسنده حسن.

(٥) سبق تخريجه.

النساء فقال: مهلاً يا بني، مهلاً يا بني، فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبر فلانًا الحبر: أني لا أخرج من صلبك صديقًا أبدًا ما كان غضبك لي إلا أن قلت مهلاً يا بني؟!..»[١].

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً «**كمثل قوم نزلوا إلى أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها**»[٢].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات[٣].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار لا هي أطعمتها ولا سقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[٤].

وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم قال: لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه وإذا نهوا عن شيء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه[٥].

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٠٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٢)، وانظر: «صفة الصفوة» (٣/ ٢٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري في «الرقاق» باب «ما يتقى من محقرات الذنوب» عن أنس موقوفًا به.

- ورواه أحمد (٣/ ٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٩٠)، ورجاله رجال الصحيح، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

- ورواه أحمد (٣/ ٤٧٠)، والدارمي (٢٧٦٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦)، والطيالسي (١٣٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦١٤١)، والضياء في «المختارة» (٤٥١) عن عبادة بن قرط، وقال الهيثمي في «المجمع»: وبعض رجال أحمد رجال الصحيح. اهـ.

(٤) رواه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢)، وابن ماجة (٤٢٥٦)، وأحمد (٢/ ٢٦١).

(٥) رواه البيهقي في «الشعب» (٧٢١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٩).

ومن ههنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر كما أن القبلة بريد الجماع والغناء بريد الزنا والنظر بريد العشق والمرض بريد الموت.

وفي الحلية أيضًا عن ابن عباس أنه قال: «يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه فلم يعنه ولم ينه الظالم على ظلمه فابتلاه الله»[١].

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت بلال ابن سعد يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت»[٢].

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله[٣].

وقيل: أوحى الله إلى موسى، يا موسى إن أول من مات من خلقي إبليس وذلك أنه عصاني وإنما أعد من عصاني من الأموات.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله**

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٢٤)، و «صفة الصفوة» (١/ ٧٥٤).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (٣٨٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٧١٥٩)، والخطيب في «التاريخ» (٣/ ٢٨٠)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٩١)، و«تهذيب الكمال» (٤/ ٢٩٥)، و «صفة الصفوة» (٤/ ٢٨).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢٧)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٧١٥٢).

عز وجل: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح [١].

وقال حذيفة: «إذا أذنب العبد ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الربداء» [٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«أما بعد يا معشر قريش، فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث إليكم من يلحاكم كما يُلحى هذا القضيب لقضيب في يده، ثم لحا قضيبه فإذا هو أبيض يصلد»** [٣].

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: إن الرب عز وجل قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: «إني إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد» [٤].

وذكر أيضًا عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية: «أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا» [٥].

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجة (٤٢٤٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٥١)، والحاكم (٢/ ٥١٧)، وابن حبان (٩٣٠، ٢٧٨٧)، والبيهقي (١٠/ ١٨٨)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٣).

ومعنى «الشاة الربداء»: أي السوداء المختلطة بكدرة أو الرمادية.

(٣) رواه أحمد (١/ ٤٥٨)، وأبو يعلى (٥٠٢٤)، وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط»، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورجال أبي يعلى ثقات. اهـ.

(٤) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤١).

(٥) روي مرفوعًا وموقوفًا من حديث عائشة، فقد رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٩٨)، والحميدي في «مسنده» (٢٦٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤١)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٥٣)، وفي سنده قطبة بن العلاء بن المنهال قال البخاري: ليس بالقوي، ووالده «العلاء بن المنهال» وثقه ابن حبان فقط، وقال العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٤٣): لا يتابع عليه، ولا يصح في الباب مسندًا وهو موقوف من قول عائشة. =

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: «ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ثم قال: تدري مم هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله فيُلقي الله بُغْضَه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر»(١).

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين: أنه لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة (٢).

وههنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسى ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يُغَبِّرْ حائط في وُقوعِهِ ... فليس له بعد الوقوع غُبَارُ

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق! وكم أزالت من نعمة! وكم جلبت من نقمة وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدَّغَل.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: «اعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم من الموتى واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يطغيكم واعلموا أن البر لا يبلى وأن الإثم لا ينسى»(٣).

= ورواه أحمد في «الزهد» (ص ١٦٥)، وابن المبارك في «الزهد» (٢٠٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٩٨)، من طريق ابن نمير عن زكريا بن أبي زائدة عن العباس بن زريح عن الشعبي، وإسناده صحيح رجاله ثقات لولا أن زكريا مدلس وقد عنعنه.

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٢١٥) لأبي نعيم.

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٧١)، وانظر «فيض القدير» (٥/ ١٠)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٣١).

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٣٥، ١٤٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٦٤).

ونظر بعض العباد إلى صبي فتأمل محاسنه، فأُتِيَ في منامه وقيل له: لتجدنَّ غِبَّها بعد أربعين سنة.

هذا مع أن للذنب نقدًا معجلاً لا يتأخر عنه قال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت بي الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله ويشمت به في القيامة كل عدو.

وقال ذو النون: من خان الله في السر، هتك الله ستره في العلانية[1].

□ □ □

(١) «شعب الإيمان» (٦٩٨٨)، من كلام يحيى بن معاذ الرازي.

فصل

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم: فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية. وقال الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظ   فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم فضل   وفضل الله لا يؤتاه عاصي

ومنها: حرمان الرزق: وفي المسند: **«إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»** وقد تقدم، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه وبينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة وما لجرح بميت إيلام فلو لم تترك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريًا بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب   فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان.

ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم: فإنه يجد وحشة بينه وبينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم

بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه وبينه وبين نفسه فتراه مستوحشًا من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خُلُق دابتي وامرأتي[1].

ومنها: تعسير أموره عليه: فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه، أو متعسرًا عليه وهذا كما إن من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسرًا، ويا لله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أُتِيَ.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة: يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: «إن للحسنة ضياء في الوجه ونورًا في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه وظلمة في القلب ووهنًا في البدن ونقصًا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق».

ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن: أما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن: فإن المؤمن قوته في قلبه وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه وإن كان قوي البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم، أحوج ما كانوا إليها وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم.

---

[1] «حلية الأولياء» (٨/١٠٩)، و«صفة الصفوة» (٢/٢٣٨)، من كلام الفضيل بن عياض -رحمه الله.

ومنها: **حرمان الطاعة**: فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله، وتقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرًّا فينقطع عنه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها والله المستعان.

ومنها: **أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولابد**: فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور يقصر العمر. وقد اختلف الناس في هذا الموضوع.

فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه.

وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابًا كثيرة تكثره وتزيده وللبركة في العمر أسبابًا كثيرة تكثره وتزيده قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والآجال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتًا غير حي كما قال تعالى: ﴿**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ**﴾[النحل: ٢١] .

فالحياة في الحقيقة حياة القلب وعمر الإنسان مدة حياته **فليس عمره إلا أوقات** حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة **تزيد في هذه الأوقات** التي هي حقيقة عمره ولا عمر له سواها.

وبالجملة؛ فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه **أيام حياته** الحقيقية التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿**يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾[الفجر: ٢٤] فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية **والأخروية أو لا** فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته **باطلاً، وإن كان**

له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسر المسألة: أن عمر الإنسان مدة حياته ولا حياة له إلا بإقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره وإيثار مرضاته.

فصل

ومنها: **أن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضًا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها**: كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها. فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعملني أيضًا فإذا عملها قالت الثالثة كذلك، وهلم جرًا فتضاعف الربح وتزايدت الحسنات.

وكذلك كانت السيئات أيضًا حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقرُّ عينه.

ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها، حتى إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها.

كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شَربت على لَذَّةٍ … وأخرى تَداوَيْتُ منها بِهَا

وقال الآخر:

وكانت دوائي وهي دائي بعينه … كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزًّا وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه

ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزه إليها أزًا. فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فصاروا من أكبر أعوانه وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه.

فصل

ومنها - وهو من أخوفها على العبد-: **أنها تضعف القلب عن إرادته**: فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب إلى الله فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على مواقعتها متى أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

فصل

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة: فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها فيقول: يا فلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لا يعافون ويُسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي ﷺ : «**كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من الإجهار: أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيهتك نفسه وقد بات يستره ربه**»[1] .

ومنها: أن كل معصية من المعاصي هي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل: فاللوطية: ميراث عن قوم لوط. وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص: ميراث عن قوم شعيب. والعلو في الأرض بالفساد: ميراث عن قوم فرعون والتكبر

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠)، والطبراني في «الصغير» (١/ ٣٧٨)، والبيهقي (٨/ ٣٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والتجبر: ميراث عن قوم هود. فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله.

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: لا يدخلوا مداخل أعدائي ولا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يركبوا مراكب أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي».

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[١].

فصل

ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه:

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج:١٨] وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفًا من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه:

وذلك علامة الهلاك فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به: هكذا فطار»[٢].

---

(١) رواه البخاري «تعليقًا» في «الجهاد» باب: ما قيل في الرماح. ورواه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢)، وعبد ابن حميد (٨٤٨)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٢٨)، و«الإرواء» (١٢٥٦).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨)، والترمذي (٢٤٩٧)، وأحمد (١/ ٣٨٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧١٠٤).

فصل

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنوبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم[١].

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم[٢].

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بني آدم[٣].

فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له.

فصل

ومنها: أن المعصية تورث الذل ولابد: فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي: فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك[٤].

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين[٥] فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذلَّ من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

---

(١) رواه ابن جرير في «التفسير» (١٤/١٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٧٩).

(٢) رواه ابن جرير في «التفسير» (٢/٥٥).

(٣) المصدر السابق (٢/٥٥).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/١٩٦)، وذكره المزي في «تهذيب الكمال» (٥/٩١)، من كلام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين -رحمه الله- المشهور بـ«جعفر الصادق».

(٥) «تفسير ابن كثير» (٢/٢٤٩).

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها[١]

فصل

ومنها: أن المعاصي تفسد العقل: فإن للعقل نورًا والمعصية تطفئ نور العقل ولابُدَّ، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره وهو مطلع عليه، وفي داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله، والاستخفاف به ذو عقل سليم؟!.

فصل

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين.

كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين:١٤] قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب[٢].

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم[٣].

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/٢٧٩)، و«شعب الإيمان» (٧٣٠٠)، و «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٢/٢١٣).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٠/٩٨)، و «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٩).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٩/٢٥٩)، عن مجاهد بن جبر -رحمه الله.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذٍ يتولاه عدوه وسوقه حيث أراد.

فصل

ومنها: أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ: فإنه لعن على معاصٍ، والتي غيرها أكبر منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة.

فلعن الواشمة والمستوشمة[(١)]، والواصلة والمستوصلة، والنامصة والمتنمصة والواشرة والمستوشرة[(٢)].

ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده[(٣)].

ولعن المحلِّل والمحلَّل له[(٤)].

ولعن السارق[(٥)].

ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه[(٦)].

---

(١) رواه البخاري (٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤)، وأبو داود (٤١٦٨)، والترمذي (١٧٥٩)، والنسائي (٥٢٥١)، وابن ماجة (١٩٨٧)، وأحمد (٢/ ٢١)، من حديث ابن عمر.

(٢) رواه البخاري (٥٩٤٨)، ومسلم (٢١٢٥)، وأبو داود (٤١٦٩)، والترمذي (٢٧٨٠)، والنسائي (٥١١٤)، وابن ماجة (١٩٨٩)، وأحمد (١/ ٤١٦)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه مسلم (١٥٩٧)، وأبو داود (٣٣٣٣)، والترمذي (١٢٠٦)، وابن ماجة (٢٢٧٧)، من حديث ابن مسعود.

(٤) رواه الترمذي (١١٢٠)، والنسائي (٣٤١٦)، وأحمد (١/ ٤٤٨)، من حديث ابن مسعود وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، و«الإرواء» (١٩٥٥).

(٥) رواه البخاري (٦٧٩٩)، ومسلم (١٦٨٧)، من حديث أبي هريرة.

(٦) رواه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجة (٣٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٥)، من حديث ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٦٧).

ولعن من غيَّر منار الأرض، وهي أعلامها وحدودها[1].

ولعن من لعن والديه[2].

ولعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرميه بالسهام [3] .

ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء [4] .

ولعن من ذبح لغير الله[5].

ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا [6] .

ولعن المصورين [7] .

ولعن من عَمِلَ عمل قوم لوط [8] .

ولعن من سب أباه وأمه [9] .

ولعن من كمه أعمى عن الطريق [10] .

ولعن من أتى بهيمة [11].

(١، ٢، ٥، ٦) رواه مسلم (١٩٧٨)، والنسائي (٤٤٣٤)، وأحمد (١/ ١٠٨)، من حديث علي بن أبي طالب.

(٣) رواه البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (١٩٥٨)، من حديث ابن عمر.

(٤) رواه البخاري (٥٨٨٥)، وأبو داود (٤٩٣٠)، والترمذي (٢٧٨٥)، وابن ماجة (١٩٠٤)، وأحمد (١/ ٢٥٤)، من حديث ابن عباس.

(٧) رواه البخاري (٥٩٦١)، من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٨) رواه النسائي في «الكبرى» (٧٣٣٧)، وأحمد (١/ ٢١٧، ٣٠٩، ٣١٧)، وأبو يعلى (٢٥٣٩)، وابن حبان (٤٤١٧)، من حديث ابن عباس، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

- ورواه الطبراني في «الأوسط» (٨٤٩٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٧٢)، وفيه محرز بن هارون - ويقال محرر- وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه وبقية رجاله رجال الصحيح.

وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٦٧)، من حديث ابن عباس.

(٩) رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠)، من حديث عبد الله بن عمرو.

(١٠) رواه أحمد (١/ ٢١٧، ٣٠٩)، عن ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٦٧).

«كمه الأعمى» أي: أضله عن الطريق.

(١١) هو جزء من الحديث السابق.

ولعن من وسم دابة في وجهها[١] .

ولعن من ضارَّ مسلمًا أو مكر به[٢] .

ولعن زوارات القبور[٣] والمتخذين عليها المساجد[٤] والسرج[٥] .

ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكًا على سيده[٦] .

ولعن من أتى امرأة في دبرها[٧] .

وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح[٨] .

ولعن من انتسب إلى غير أبيه[٩] .

وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه.

---

(١) رواه مسلم (٢١١٧)، وأبو داود (٢٥٦٤)، من حديث جابر.

(٢) رواه أبو يعلى (٩٦)، والطبراني في «الأوسط» (٩٣١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٦٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٠/ ١٦٢)، من حديث أبي بكر الصديق مرفوعًا بلفظ: **«لا يدخل الجنة سيئ الملكة، ملعون من ضار مسلمًا أو غره - أو ماكره»** وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٢٧٥)، ولكن معناه صحيح.

(٣) رواه الترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجة (١٥٧٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، من حديث أبي هريرة، وصحح الألباني هذا الجزء من الحديث في «صحيح الجامع» (٤٩٨٥).

(٤) لقوله ﷺ : **«لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**. رواه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩)، من حديث عائشة.

(٥) رواه الترمذي (٣٢٠)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والنسائي (٢٠٤٢)، وابن ماجة (١٥٧٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٦٩١).

(٦) رواه أبو داود (٢١٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٢١٤)، وأحمد (٢/ ٣٩٧)، من حديث أبي هريرة وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٩٩) ولفظه: **«من خبب زوجة امرئ أو مملوكه فليس منا»**.

(٧) رواه أبو داود (٢١٦٢)، وابن ماجة (١٩٢٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠١٥)، وأحمد (٢/ ٤٤٤، ٤٧٩)، من حديث أبي هريرة، بلفظ: **«ملعون من أتى امرأة في دبرها»** وصححه البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١١٠)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٦٥).

(٨) رواه البخاري (٥١٩٤)، ومسلم (١٤٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٩) رواه البخاري (٣٥٠٨)، ومسلم (٦١)، من حديث أبي ذر، ورواه البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (٦٢)، من حديث أبي هريرة، ولفظه : **«لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر»**.

ولعن من سب الصحابة [١] .

وقد لعن الله في كـتابه من أفسد في الأرض وقطع رحـمه وآذاه وآذى رسول الله ﷺ [٢] .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى [٣] .

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة [٤] .

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين [٥] .

ولعـن رسـول الـله ﷺ الرجل يلبس لبسـة المرأة، والمرأة تلبس لبسـة الرجل[٦] .

ولعن الراشي والمرتشي والرائش[٧] وهو الواسطة في الرشوة.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤٠٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٧٣٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٠١)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٠١٠)، عن عطاء بن أبي رباح مـرسلاً، وقال الألباني في «ظلال الجنة»: إسناده مرسل صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير محمد بن خالد وهو صدوق.

- ورواه الطبراني في «الأوسط» (٧٠١٥)، و«الكبير» (١٢/ ٤٣٤) عن عطاء عن ابن عمر مـرفوعًا، وإسناده ضعيف، ولفظه: «**من سب أصحابي فعليه لعنة الله**» والحديث صححه الألباني بمجموع طرقه وشواهده وانظر «السلسلة الصحيحة» (٢٣٤٠).

(٢) قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ [الرعد: ٢٥].

(٣) قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩].

(٤) قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ٢٣].

(٥) قال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

(٦) رواه أبو داود (٤٠٩٨)، والنسائي في «الكبرى» (٩٢٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٢٥)، وابن حبان (٥٧٥١)، والطبراني في «الأوسط» (٩٨٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٧١).

(٧) رواه أبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٧)، وابن ماجة (٢٣١٣)، وأحمد (٢/ ٦٤)، من حديث عبد الله بن عمرو. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٩٠). =

ولعن على أشياء أخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

فصل

ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة: فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [غافر: ٧-٩] فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذ لم يتصف بصفات المدعو له بها. والله المستعان.

فصل

ومن عقوبات المعاصي: ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال: كان النبي ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟**» قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وإنه قال لنا ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثا بي وإنهما قالا لي: انطلق وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع[1] وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ[2] رأسه فيتدهده[3] الحجر ههنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى**

= ورواه الترمذي (١٣٣٦)، وأحمد (٢/ ٣٨٧)، وابن حبان (٥٠٧٦)، والضياء في «المختارة» (٥٨٥)، من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني - رحمه الله- في «صحيح الجامع» (٤٩٦٩).

(١) مضطجع: نائم على جنبه. (٢) يثلغ: يشدخ. (٣) يتدهده: يتدحرج.

يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى. قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب[١] من حديد وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر[٢] شدقه [٣] إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان. ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ فقالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على مثل التنور[٤] فيه لغط [٥]وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا[٦]، فقال: قلت لهم ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم وإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما شاء الله أن يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر[٧] له فاه فيلقمه حجرًا فينطلق فيسبح ثم يرجع إليه وكلما رجع إليه فيفغر له فاه فألقمه حجرًا قلت لهما: ما هذان؟ قالا لي: انطلق انطلق.

قال: فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة[٨] كأكره ما أنت راء رجلاً مرأة وإذا هو عنده نار يَحشها[٩] ويسعى حولها قال: قلت لهما ما هذا؟! قال: قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على روضة مُعَتَّمة[١٠] فيها من كل لون الربيع وإذا بين ظهراني الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء وإذا حول الرجل من

(١) كلوب: حديد لها رأس معقوف يجر به.
(٢) يشرشر: يقطع ويشق.
(٣) الشدق: جانب الفم مما تحت الخد.
(٤) التنور: الفرن.
(٥) لغط: الصوت الكثير والجلبة.
(٦) ضوضوا: صاحوا عاليًا وأحدثوا ضوضاء.
(٧) يفغر: يفتح.
(٨) كريه المرآة: قبيح المنظر.
(٩) يحشها: يجمع لها الوقود ويزكيها.
(١٠) معتمة: كثيفة النبات والظلال.

أكثر ولدان رأيتهم قط قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن قال: قالا لي: ارق[1] فيها، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال: فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر منهم كأقبح ما أنت راء قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال: وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض[2] في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم.

قال: قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك.

قال: فسما بصري صعدًا فإذا قصر مثل الربابة[3] البيضاء قال: قالا لي: هذا منزلك قلت لهما: بارك الله فيكما فذراني[4] فأدخله قالا: أما الآن فلا وأنت داخله قلت لهما: فإني رأيت منذ الليلة عجبًا فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك.

أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل الذي يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق[5].

وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ.

---

(١) ارق: اصعد.
(٢) المحض: الخالص.
(٣) الربابة: السحابة البيضاء.
(٤) ذراني: اتركاني - دعاني.
(٥) تبلغ الآفاق: تنتشر في جميع البلاد والأنحاء.

وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة».

وفي رواية البرقاني: «**ولد على الفطرة**»، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وأولاد المشركين**».

«**وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسنًا وشطر منهم قبيحًا فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم**»[1].

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن.

قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١].

قال مجاهد: وإذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس الله لذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١].

ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا؟ ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر[2].

وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء[3].

وقال قتادة: أما البر فأهل العمود[4]، وأما البحر فأهل القرى والريف.

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٥٨)، وأحمد (٥/٨)، وابن حبان (٦٥٥)، وابن خزيمة (٩٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٦٨)، ورواه مسلم (٢٢٧٥)، والترمذي (٢٢٩٤) مختصرًا على قوله ﷺ: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟».

(٢) «تفسير الطبري» (٢/٣١٧). (٣) «تفسير الطبري» (٢١/٤٩).

(٤) «تفسير الطبري» (٢١/٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٤/٤١).

- أهل العمود، أي «البدو» نسبة إلى عمود الخيمة.

قلت: وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحرًا، فقال: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾ [فاطر: ١٢] وليس في العالم بحر خلق واقفًا وإنما هي الأنهار الجارية والبحر المالح هو الساكن، فسمى القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه.

وقال ابن زيد: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾ قال: الذنوب.

قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله: ﴿ **لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا** ﴾ [الروم: ٤١] لام العاقبة والتعليل، وعلى الأول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث الله لهم عقوبة . كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة.

والظاهر والله أعلم أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ **لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا** ﴾ فهذا حالنا وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة.

ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها: وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون[١] ، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم النواضح[٢] لتأثير شؤم المعصية في الماء وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات.

وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: وجد في خزائن بني أمية حبة حنطة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها: هذا كان ...

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨١)، ومسلم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر ... حجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أ... أن يصيبكم مثل ما أصابهم**».

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨١)،

زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها اللـه سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب.

وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق: فقد روى الترمذي في جامعه عنه ﷺ أنه قـال: «**خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**»[1] .

فإذا أراد الله أن يـطهر الأرض من الظلمة والـفجرة والخـونة يخرج عـبدًا من عباده من أهل بـيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قسطًا كـما ملئت جورًا ويقتل المسيح اليهـود والنصارى ويقـيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخـرج الأرض بركتـها وتعود كما كانت حتى إن العصابة من الناس لـيأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها[2] ويكون العنقود من العنب وِقْر[3] بعير وأن اللقحة[4] الواحدة لتكفي الفئام[5] من الناس وهذه لأن الأرض لما طهـرت من المعاصي ظهـرت فيـها آثار البركـة من الله تعالـى التي محقـتهـا الذنوب والكفر ولا ريب أن العـقوبات التي أنزلهـا الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض تطلب مـا يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فـهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم فـتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخرًا وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشـيطان ومحله وداره فإنه لما قارن العبد واسـتولى عليه نزعت

---

(١) رواه البـخاري (٣٣٢٦)، ومـسلم (٢٨٤١)، وأحـمـد (٢/ ٣١٥)، وابن حبـان (٦١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) القحف: الجزء الأعلى من الجمجمة - قصد بذلك قشرتها.

(٣) الوقر: الحمل الثقيل.

(٤) اللقحة: الناقة التي ألقحها الفحل من الإبل.

(٥) الفئام: الجماعة الكثيرة من الناس.

البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت ونزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

فصل

ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن: فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير[1] خبث الذهب والفضة والحديد وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الأمة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه والله أغير مني**»[2].

وفي الصحيح أيضًا: أنه قال في خطبة الكسوف: «**يا أمة محمد، ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته**»[3].

وفي الصحيح أيضًا عنه: أنه قال: «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه**»[4].

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين

---

(١) الكير: آلة من جلد أو نحوه يستخدمها الحداد وغيره للنفخ في النار لإشعالها.

(٢) رواه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩)، وأحمد (٤/ ٢٨٤)، وابن حبان (٥٧٧٣)، والدارمي (٢٢٢٧)، من حديث المغيرة بن شعبة.

(٣) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠)، والترمذي (٥٦١)، والنسائي في «الكبرى» (١٨٥٨)، وابن ماجة (١٢٦٣)، من حديث عائشة.

(٤) رواه البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠)، وأحمد (٤/ ٢٨٤)، من حديث المغيرة بن شعبة.

محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان وإنه سبحانه- مع شدة غيرته- يحب أن يعتذر إليه عبده ويقبل عذر من اعتذر إليه وإنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعتذر إليهم لأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال.

فإن كثيرًا ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذرًا ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يبغضه الله فالتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة**» وذكر الحديث [1] .

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة ويعذر في موضع العذر ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًّا.

ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه، فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبًا له، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف حيي يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر.

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة فإن الخطرة تنقلب وسوسة والوسوسة

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٧)، وأحمد (٥/ ٤٤٦)، والدارمي (٢٢٦)، والبيهقي (٧/ ٣٠٨)، من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه . وصححه الحافظ في «الإصابة» (١/ ٤٣٧).

تصير إرادة والإرادة تقوى فتصير عزيمة ثم تصير فعلاً ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة وحينئذ يتعذر الخروج منها، كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود: أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتّصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه ويسعى له في تحصيله ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة حرام عليه وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة.

وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة.

ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ولم يجد دافعًا فتمكن فكان الهلاك ومثلها مثل صياصي الجاموس التي يدفع بها عن نفسه وولده فإذا كسرت طمع فيه عدوه.

فصل

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء: الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الحياء خير كله**»[1].

وقال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما**

---

(١) رواه مسلم (٣٧)، وأبو داود (٤٧٩٦)، وأحمد (٤/٤٢٦، ٤٣٦، ٤٤٠، ٤٤٢) والطيالسي (٨٥٤)، والطبراني في «الكبير» (١٨/١٧١)، من حديث عمران بن حصين.

شئت»(١) وفيه تفسيران:

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد، والمعنى: من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح، إذ الحامل على تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها وهذا تفسير أبي عبيدة.

والثاني: أن الفعل إذا لم تستح منه من الله فافعله، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحيي منه من الله. وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ.

فعلى الأول يكون تهديدًا، كقوله: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾ [فصلت:٤٠]. وعلى الثاني يكون إذنًا وإباحة.

فإن قيل: فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟

قلت: لا، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر. والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حيًّا وقال: فديت من لا يفلح

والحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمى حيا- بالقصر- لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا، ومن استحيا من الله عند معصيته، استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح من معصيته لم يستح من عقوبته.

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٣)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وابن ماجة (٤١٨٣)، وأحمد (٤/١٢١، ١٢٢)، من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

فصل

ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولابد، شاء أم أبى. ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره، ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله، وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨] فإنه لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟

فصل

ومن عقوباتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه: وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة. قال الله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [الحشر: ١٨، ١٩] فأمره بتقواه، ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه. أي أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه، والقيام بأمره، فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه مضيعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف، كما قيل:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات: نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعة حظها ونصيبها من الله، وبيعه ذلك بالغبن[1] والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به عنه كل الغنى أو منه كل العوض.

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض عن كل ما سواه ولا يعوض عنه شيء، ويغني عن كل شيء ولا يُغنى عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه.

---

(١) الغبن: النقص.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان، وتمنعه ثواب المحسنين:

فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلاً عن مواقعتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فاته صحبة رفقته الخاصة، وعيشهم الهنيء، ونعيمهم التام، فإن أراد الله به خيرًا أقره في دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه فيها الناس أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن فإياكم إياكم، والتوبة معروضة بعد**»(1).

فصل

ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

فمنها: الأجر العظيم: ﴿**وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحج: ٣٨].

ومنها: استغفار الملائكة حملة العرش لهم: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [غافر: ٧].

---

(1) رواه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧)، وأبو داود (٤٦٨٩)، وابن ماجة (٣٩٣٦)، والترمذي (٢٦٢٥)، والنسائي (٤٨٨٥)، وأحمد (٢/٣١٧)، من حديث أبي هريرة.

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يُذَلُّ من والاه الله، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

ومنها: العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: إعطاؤهم كفلين من رحمته وإعطاؤهم نورًا يمشون به ومغفرة ذنوبهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

ومنها: الود الذي يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته، وأنبيائه، وعباده الصالحين﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدىً لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

والمقصود: أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان، فكيف يهون على

العبد أن يرتكب شيئًا يـخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكليـة، ومن ههنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر.

فصل

ومن عقوباتها: **أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير**، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يصعب تداركه، والله المستعان.

فالذنب إما أن يميت القلب، أو يمرضه مرضًا مخوفًا، أو يضعف قوته، ولابد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي: «**الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال**»[1] وكل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم!، وإن كان من أمرٍ ماضٍ قد وقع، أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٩)، ومسلم (٢٧٠٦)، وأبو داود (١٥٤٠)، والنسائي (٥٤٦٤)، وأحمد (١٥٩/٣)، من حديث أنس ﷺ.

من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

والمقصود: أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة، «لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء» ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عافيته، وفجأة نقمته، وجميع سخطه.

فصل

ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم وتحل النقم.

فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة». وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم لها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غُير عليه، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

فإن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وفي بعض الآثار الإلهية، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال: «وعزتي وجلالي، لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره، إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب، إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب».

ولقد أحسن القائل:

إذَا كُنْتَ في نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإنَّ المَعَاصي تُزيلُ النِّعَمْ
وحُطْها بِطَاعَةِ ربِّ العِبَاد فَرَبُّ العِبَاد سَرِيعُ النِّقَمْ
وإيَّاك والظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ فَظُلْمُ العِبَاد شَدِيدُ الوَخَمْ
وسَافِرْ بقلبكَ بَيْنَ الوَرَى لتُبْصَرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فتلك مَسَاكنهُمْ بَعْدَهُمْ شُهُودٌ عَلَيْهِمْ، ولا تتَّهِمْ
وما كان شيء عَلَيْهِم أضَرَّ منَ الظُّلْم، وَهْوَ الذي قَدْ قَصَمْ
فكَمْ تَرَكُوا منْ جِنَانٍ ومِنْ قُصُور، وأخْرى عَليهِمْ أطمْ
صَلَوْا بالجحيمِ وَفَاتَ النَّعِيمُ وكَانَ الذي نَالَهُمْ كَالحُلُمْ[1]

فصل

ومن عقوباتها: ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا.

فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمنه منه مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصدًا إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

هذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا أن المخاوف والإجرامَ في قرنٍ

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشًا، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه وكلما كثرت

(١) القائل هو: أبو الحسن الكندي، وانظر «شعب الإيمان» للبيهقي (٤٥٥٩)، و «كشف الخفا» للعجلوني (١/ ٢٨٠).

الذنوب اشتدت الوحشة، وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش عيش المستأنسين، فلو فكر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة، لعلم سوء حاله وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية، وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له.

كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة.

ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه، ويجد أنسًا وقربًا بينه وبين من يحب، وإن كان بعيدًا عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحدًا ملابسًا شيئًا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش ويُستَوحَش منه.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا تركها.

وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطي مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد.

وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا.

ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك- أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار- فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف، والهم، والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل. فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم، والغم، والحسرة، والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذٍ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينة بذكره؟

حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه.

ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال، إنهم لفي عيش طيب.

ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف[1].

ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغُبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غُبِنَ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين.

فيا عجبًا من بضاعة معك الله مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ وقد بعتها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يُكْرِمُ؟

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

فصل

ومن عقوباتها: أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب موارد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب!. ثم تقوي تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد، بحسب

(١) القائل هو: إبراهيم بن أدهم، وانظر: «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧١)، و«صفة الصفوة» (٤/ ٢٥٤).

قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ: «**إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله منورها بصلاتي عليهم**»[(١)].

فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علوًّا ظاهرًا يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم! فالله المستعان.

فصل

ومن عقوباتها: **أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها وتحقرها**، حتى تصير أصغر شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ**﴾ [النحل: ٥٩]، فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف، والنمو فما صَغَّر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦)، وأبو داود (٣٢٠٣)، والنسائي (٤/ ٧٢)، وابن ماجة (١٥٠٥)، من حديث أبي هريرة.

فصل

ومن عقوباتها: أن العاصي دائمًا في أسر شيطانه وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة، قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده. ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته[1] الآفات.

وفي الحديث: «**الشيطان ذئب الإنسان**»[2].

وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولابُدّ، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أبعد من الراعي.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات.

والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض، فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

---

(١) احتوشته: أحاطت به لتهلكه وتفتك به.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٢، ٢٤٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٧)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٦٤) وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢١٩)، رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٧٧).

فصل

ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: خامل الذكر وساقط القدر، زري الحال، لا حرمة له، ولا فرح له ولا سرور، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم، وهم، وحزن، ولا سرور معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص:٤٥، ٤٦]، أي: خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سبحانه عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأواب، والطيب، والمرضي،

ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والمسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، وقاطع الرحم، والغادر، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق، و﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١١] الذي يوجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان.

وتلك أسماء توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها على سائر نوع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل آمر بها، ولكن لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا مقرب لما باعد، ولا مبعد لمن قرب: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج:١٨].

فصل

ومن عقوباتها: أنها تؤثر خاصة في نقصان العقل، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاصٍ، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسد، والصواب قرينه.

ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب، كقوله: ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:١٠٠]، وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوارٍ عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن

بابه، وإعراضه عنه، وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامته أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أحسن حالاً منه وأسلم عاقبة، فهذا من هذا الوجه.

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيش، فلولا الاشتراك في هذا النقصان، لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا، ولكن الجائحة عامة، والجنون فنون.

ويا عجبًا لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة، والسرور، وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعيم كله في رضاه، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرة العيون، وسرور النفوس، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأطيب النعيم، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضًا منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم، والغموم، والأحزان، والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال الله تعالى: ﴿**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ**﴾ [النساء: ١٠٤].

فلا إله إلا الله، ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر، والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم، وأعد لهم جهنم، وساءت مصيرًا.

فصل

ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر، فأي فلاح وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه، وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ [الكهف:٥٠]، يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريمًا له وتشريفًا، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع، وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال، هذا لو لم يكن عدو الملك عدوًا لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه. ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿**وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**﴾ [الكهف:٥٠]، كما نبه على قبحها بقوله: ﴿**فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ [الكهف:٥٠]، فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس

للظالمين بدلاً.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة؟

فصل

ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة؛ تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره، ودينه، ودنياه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الأعراف:٩٦] وقال تعالى: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ [الجن:١٦، ١٧]، «**وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**».

وفي الحديث: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته، وإن الله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[1].

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في «كتاب الزهد»: «أنا الله، إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تدرك السابع من الولد».

وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

---

(١) رواه ابن ماجة مختصراً (٢١٤٤) عن جابر، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٥١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٧٦) عن ابن مسعود.

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده، والإنابة إليه والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله، ولو تعوض عنها بما تعوض مما في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة، فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة.

وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحي الذي لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله وجُوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض؟

وإنما كانت معصية الله سببًا لمحق بركة الرزق والأجل، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها: فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان، وأهله، وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل، والشرب، واللبس، والركوب، والجماع، لما في مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة، ولا معارض له، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعني إلى ألوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان، والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكل ما كان قريبًا من ذلك، ففيه من البركة على حسب قربه منه.

وضد البركة اللعنة، فأرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا

بركة فيه البتة.

وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه أو مال عصي الله به، أو بدن، أو جاه، أو علم، أو عمل فهو على صاحبه، ليس له. فليس له من عمره، وماله، وقوته، وجاهه، وعلمه، وعمله إلا ما أطاع الله به. ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي عنه ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم**»[1].

وفي أثر آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله»، فهذا هو الذي فيه البركة خاصة. والله المستعان، وعليه التكلان.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العلية، فإن الله خلق خلقه قسمين: علية، وسفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء، كما في «مسند الإمام أحمد» من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) من حديث أبي هريرة وقال: حسن غريب.

قلت: وفي إسناده عبد الرحمن بن ثابت، ضعفه العقيلي، ورواه أحمد في «الزهد» (ص ١٣٧)، من حديث أبي الدرداء، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠١٨).

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠١٩).

«بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري»[١].

فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة، كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيدًا أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، فلا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»**[٢].

فأي صعود يوازي هذه النزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوي به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية، إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عوده إلى توبة نصوح، وإنابة صادقة.

واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها، بناء على أن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)، والترمذي (٢٣١٤)، وابن ماجة (٣٩٧٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٤، ٣٧٨)، وابن حبان (٥٧٠٧)، والبيهقي (٨/ ١٦٤)، من حديث أبي هريرة.

التوبة تمحو أثر الـذنب، وتجعل وجوده كعدمـه، فكأنه لم يكن، أو لا يعود، بناء على أن التوبة تأثـيرها في إسقـاط العقوبة، وأمـا الدرجة التي فاتتـه فإنه لا يصل إليها؟

قالوا: وتقرير ذلك: أنه كان مستعدًا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعـود آخر وارتقاء، تحمله أعماله السالفـة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الـذي يملكه، وكلما تضـاعف المال تضاعف الربح، فـقد راح عليـه في زمن المعصية ارتفاع وربح تحمله أعماله، فـإذا استأنف العمل استأنف صعودًا من نزول، وكان قبل ذلك صاعدًا من أسفل إلى أعلى، وبينهما بون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سُلمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلى أسـفل، ولو بدرجة واحدة، ثم استأنف الصـعود، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولابد.

وحكم شيخ الإسـلام ابن تيميـة- رحمه الله- بين الطائفـتين حكمًا مقـبولاً، فقال: التـحقق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجـته، ومنهم من يعود إلى مثل درجته، ومنه من لا يصل إلى درجته.

قلـت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحـدثته المعصية للعبد من الذل والخضـوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خـشية الله، فقـد تقوى هذه الأمور، حتى يعود الـتائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد الـتوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فـهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمـة، فإنها نفت عنه داء العجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعـماله، ووضعت خد ضراعته، وذله، وانكساره على عتبـة باب سيده ومولاه، وعرفتـه قدره، وأشهدته فقـره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له، وإلى عـفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلـبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه أن يشمـخ، أو يتكبر بها، أو يرى نفسه بها خيرًا من غـيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخـطائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مسـتحيـيًا منه خائفًا وجلاً، محتـقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيتـه، قد عرف نفسه بالنقص والذم،

وربه متفرد بالكمال، والحمد، والوفاء.

كما قيل:

استأثر الله بالوفاء وبالـ حمد وولّى الملامة الرَّجُلاَ

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه، ورأى نفسه دونها، ولم يرها أهلاً لها.

وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه، إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه.

فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز، فإن الذنب وإن صغر، فإن مقابلة العظيم الذي لا شيء أعظم منه الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجلها- من أقبح الأمور، وأفظعها، وأشنعها، فإن مقابلة العظماء، والأجلاء، وسادات الناس، بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السموات والأرض، وملك السموات والأرض، وإله السموات والأرض؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، وإلا لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصي العباد، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [فاطر: ٤١].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: «الحليم، والغفور» كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض؟

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه: ﴿**تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**﴾ [مريم: ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه وتعالى الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد

ارتكبه، وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوته الأعلى بذنب واحد

والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته، وتوهن عزمه، وتمرض قلبه، فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى صحته الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت، ويعود إلى مثل عمله، فيعود إلى درجته.

هذا إذا كان نزوله إلى معصية، فإذا كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه مثل الشكوك والريب، والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه من رأسه.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تجرئ على العبد من لم يكن يتجرأ عليه من أصناف المخلوقات، فتجترئ عليه الشياطين بالأذى، والإغواء، والوسوسة، والتخويف، والتحزين، وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزًّا.

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه، وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم. قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي.

وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى.

وذلك لأن الطاعة حصن الرب- تبارك وتعالى- الذي من دخله كان من الآمنين.

فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله، يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شيء يرد عنه، فإن ذكر الله، وطاعته، والصدقة، وإرشاد الجاهل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد، بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه، فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك، فلابد للعبد من شيء يرد عنه، فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع، ويكون الحكم للغالب كما تقدم، وكلما قوي جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع. والله المستعان.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل.

وأقواهم وأكيسهم من قوي على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره.

وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأعرفهم من كان عارفًا بأسباب السعادة والشقاوة. وأرشدهم من آثر هذه على هذه، كما أن أسفههم من عكس الأمر.

والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين.

فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه، ونفسه، وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد

ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به.

كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنًا بالمرض. فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئًا، والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها، فما الظن بها؟

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات، والمعاصي، وتضعف- أعني: النفس المطمئنة- وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأمارة.

وربما ماتت نفسه المطمئنة موتًا لا يرتجى معه حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط.

والمقصود: أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة، أو بلية، خانه قلبه، ولسانه، وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى، والإنابة إليه، والجمعية عليه، والتضرع والتذلل، والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينحبس القلب، واللسان على المذكور، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه، لم تنقد له ولم تطاوعه.

وهذا كله أثر الذنوب، والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شهد الناس كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: «لا إله إلا الله» فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فقال: شاه، رخ، غلبتك، ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله»، فقال:

يا رب قائــلة يومًا، وقد تـعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب؟

ثم قضى.

وقيل لآخر: «قل لا إله إلا الله»، فجـعل يهذي بالغناء، ويقول: تاتنا، تنتنا. حتى قضى.

وقيل لآخر ذلك فقال: مـا ينفعني ما تقول، ولم أدع معصيـة إلا ركبتها، ثم قضى، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صليت لله صلاة؟ ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك فقال: هو كافر بما تقول، ولم يقلها وقضى.

وقيل لآخر ذلك فقال: كلما أردت أن أقولها لساني يمسك عنها.

وأخبرني من حضر بعض الشحـاذين عند موته، فجعل يقول: لله، فلس لله فلس لله، حتى قضى.

وأخبرني بعض التـجار عن قرابة له أنه احتضـر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه: «لا إله إلا الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترٍ جيد، هذه كذا، حتى قضى.

سبحـان الله! كم شاهد الناس من هذا عبرًا! والذي يخـفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم.

فـإذا كان العـبد في حـال حضـور ذهنه وقـوته وكمـال إدراكه قـد تمكن منه الشيطان، واستـعمله فيمـا يريده من معاصي الله، وقد أغفل قـلبه عن ذكر الله، وعطل لسانه عن ذكره، وجـوارحه عن طاعته- فكيف الظن به عند سـقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟

وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف

ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟ فهناك: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه، وكان أمره فرطًا؟ فبعيد مَن قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس عن ذكره، وجوارحه معطلة عن طاعته، مشتغلة بمعصيته أن يوفق للخاتمة بالحسنى؟

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُم أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم:٣٩، ٤٠].

كما قيل:

يَا آمنًا مَعَ قُبْحِ الفِعْلِ منْهُ أهَلْ	أتَاكَ تَوقِيعُ أمْنٍ أنْتَ تَمْلكُهُ؟
جَمَعْتَ شَيئينْ: أمْنًا، واتِّبَاعَ هَوى	هَذَا، وإحْدَاهُما في المَرء تُهْلكُهُ
والمُحْسِنُونَ عَلَى دَرْبِ المخاوف قَدْ	سَارُوا وذلك درب لَسْتَ تَسْلُكُهُ
فرطت في الزَّرع وَقْتَ البذْرِ منْ سَفَهٍ	فكيفَ عند حصاد النَّاسِ تُدْرِكُه
هَذَا، وأعْجَبُ شيء فيْكَ زُهْدُكَ في	دَار البقاء بعيش سوف تتركُهُ
مَنِ السَّفِيْهُ إذاً بالله: أنتَ، أم الـ	مَغْبُونُ في البيْعِ غبنًا سوفَ تُدْرِكُهُ

فصل

ومن عقوباتها: أنها تعمي القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولابد، فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى، وقوته على تنفيذه في نفسه، وفي غيره، بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.

وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥].

فـ﴿الأَيْدِي﴾: القوى في تنفيذ الحق، ﴿وَالأَبْصَارِ﴾: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة، وهمة، وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحمًا، والدواء النافع سمًّا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر- الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين- على أن من عداهم فهو من الخاسرين.

فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

﴿الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣]، ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضًا به، ويرشده إليه، ويحضه عليه.

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسرًا، فمعلوم أن المعاصي، والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقًّا، والحق باطلاً، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة، إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها، لكانت داعية إلى تركها والبعد منها. والله المستعان.

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه، وتصقله، وتقويه، وتثبته، حتى يصير كالمرآة المصقولة في جلائها وصفائها، فيمتلئ نورًا، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعًا، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسي، وبه نظرة من الإنس:

فيا نظرة من قلب حُر منور يكادُ لها الشيطان بالنور يُحرَقُ

أفيستوي هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه، مختلفة أهواؤه، قد اتخذه الشيطان وطنه، وأعده مسكنه، إذا تصبح بطلعته حياه وقال: فُديتَ من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أخراه؟

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان
فإن كنت في دار الشقاء، فإنني وأنت جميعًا في شقا وهوان

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٩].

فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره، وهو كتابه الذي أنزله على رسوله، فأعرض عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه، وتدبره، ومعرفة مراد الله منه، قيض الله له شيطانًا، عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في المسير، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعًا لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض، لا نتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددتني عن الحق وأغويتني، حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر سبحانه أن هذا غير موجود، وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أُعَزِّي النفس عنه بالتَّأسِّي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

فصل

ومن عقوباتها: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه وتعالى ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، وصاحب لا ينام عنه، ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببني أبيه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس: فقد نصب له الحبائل، وبغى له الغوائل، ومد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة، ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى علي وعليكم من الخزي، واللعن، والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ قد فاتنا شركة صالحيهم في الجنة، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأمرنا أن نأخذ له أهبته، ونعد له عدته.

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وأنه قد سلط عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم، وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويقتلون، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة، والإنجيل، والقرآن، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا؟ وأي تجارة أربح منه؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٠، ١٣].

ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب أنواع المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذي هو محل معرفته، ومحبته، وعبوديته، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فولاه أمر هذه الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:١١] يعقب بعضهم بعضًا، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمده الله سبحانه بجند آخر من وحيه، وكلامه، فأرسل إليه رسوله ﷺ، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلى قوته، ومددًا إلى مدده، وعدة إلى عدته، وأيده مع ذلك بالفعل وزيرًا له ومدبرًا، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له، وبالإيمان مثبتًا له ومؤيدًا وناصرًا، وباليقين كاشفًا له عن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أولياءه، وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمد سبحانه القائم بهذا الأمر بالقوى الظاهرة والباطنة، فجعل العين طليعته، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلحون، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة:٢٢] وهؤلاء جندي: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣].

وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠] ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو، وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب، وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين، والأذن، واللسان، والبطن، واليد، والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلو المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة، وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى فلا ينفع الصبر، ولا المصابرة، ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين، واصطدام العسكرين، وكيف تدال مرة، ويدال عليك مرة أخرى، أقبل ملك الكفرة بجنوده، وعساكره، فوجد القلب في حصنه جالسًا على كرسي مملكته، أمره نافذ في أعوانه، وجنده قد حفوا به، يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته، فلم يمكنه الهجوم إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة، فقيل له هي النفس، فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها. وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فعدوها به، ومنوها إياه، وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها، فإذا اطمأنت إليه، وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة، وخطاطيفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب، وصارت معكم عليه ملكتم ثغور

العين، والأذن، واللسان، والفم واليد، والرجل، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل، أو أسير، أو جريح مثخن بالجراحات، ولا تخلوا هذه الثغور، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى القلب فتخرجكم منها، وإن غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها، حتى لا تصل إلى القلب، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئًا.

فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتبارًا، بل اجعلوا نظره تفرجًا واستحسانًا، وتلهيًا، فإن استرق نظرة عبرة فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة، فإنه أقرب إليه وأعلق بنفسه، وأخف عليه، ودونكم ثغر العين، فإن منه تنالون بغيتكم، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة، ثم أسقيه بماء الأمنية، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوي عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وأفسدوه بحسب استطاعتكم، وهونوا عليه أمره وقولوا له: مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق، والتأمل لبديع صنيعه، وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه. وما خلق الله لك العينين سدىً. وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر، وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل، فقولوا له: هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه، فادعوه إلى القول بالاتحاد، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص، ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنه يصير به من إخوان النصارى، فمروه حينئذٍ بالعفة، والصيانة، والعبادة، والزهد في الدنيا، واصطادوا عليه وبه الجهال، فهذا من أقرب خلفائي، وأكبر جندي، بل أنا من جنده وأعوانه.

فصل

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا يدخل منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتستجمله، وتخيروا له أعذب الألفاظ، وأسحرها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفوس مزجًا.

وألقوا الكلمة: فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزجوه بأخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله، أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه، وتدبره، وتفكره فيه، والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقل به ونحو ذلك، وإما بإرخاصه على النفوس. وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس، وأعز عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القابلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه للعداوة، والرابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه.

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك، ويخرجون أتباع السنة، ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم، والتشبيه، والتكييف، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه، ومباينته لمخلوقاته تحيزًا، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله: «**من يسألني فأعطيه**»[1] تحركًا وانتقالاً، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد، والوجه أعضاء وجوارح، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث، وما يقوم به من صفاته أعراضًا، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفي هذه الأمور، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر، أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه،

(١) جزء من حديث النزول المشهور: رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٤٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٣١٠)، وابن ماجة (١٣٦٦)، وأحمد (٢/٤٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والتعظيم، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه، ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]. فسماه زخرفًا، وهو باطل، لأن صاحبه، يزخرفه، ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور، فيغتر به.

والمقصود: أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه.

فصل

ثم يقول: قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه: من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصحه عباده، والتكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم، أما سمعتم قول الناصح: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس»؟

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق، أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم، وأكبهم منه على مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل، وأسير، وجريح أخذته من هذا الثغر؟.

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعوانًا على الإنس بكل طريق، وادخلوا

عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد، أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

أوما تروني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريق غيره، حتى أصيب منه حاجتي أو بعضها؟ وقد حذرهم ذلك رسولهم وقال لهم: «**إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، وقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة؟**»[١].

فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته، أنت وهو سواء؟ أوما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه، فقال: هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريقه مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها، ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أعين بني آدم، وزينوها في قلوبهم، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم.

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه.

واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمدوها واستمدوا منها، وكونوا معها على حرب النفس

---

(١) رواه النسائي (٣١٣٤)، وأحمد (٣/٤٨٣)، وابن حبان (٤٥٩٣)، والطبراني في «الكبير» (٧/١١٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٤٢٤٦)، من حديث سبرة بن أبي فاكه.

المطمئنة، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة، وأطاعت لكم أعوانها، فاستنزلوا القلب من حصنه واعزلوه عن مملكته، وولوا مكانه النفس الأمارة، فإنها تأمر بما تهوونه، وتحبونه، ولا تجيئكم بما تكرهون البتة، مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح، فزينوها وجملوها، وأروها إياها في أحسن صورة عروس توجد، وقولوا له: ذق طعم هذا الوصال، والتمتع بهذه العروس، كما ذقت طعم الحرب، وباشرت مرارة الطعن والضرب، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة، فدع الحرب تضع أوزارها، فليست بيوم وتنقضي، وإنما هو حرب متصل بالموت، وقواك تضعف عن حرب دائم.

واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك، فإن القلب إذا غفل عن الله -تعالى- تمكنتم منه ومن إغوائه.

والثاني: جند الشهوات، فزينوها في قلوبهم، وحسنوها في أعينهم، وصولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم من بني آدم أبلغ منهما، واستعينوا على الغفلة بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة، واقرنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، ولا يغلب واحد خمسة، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة، وشيطان الذاكر معهم، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم- من ذكر الله أو مذاكرة أمره، ونهيه، ودينه، ولم تقدروا على تفريقهم- فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقربوهم منهم، وشوشوا عليهم بهم.

وبالجملة: فأعدوا للأمور أقرانها، وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا أعوانًا له على تحصيلها، وإذا كان

الله قد أمرهم أن يصبروا لكم ويصابروكم، ويرابطوا عليكم بالثغور، فاصبروا أنتم وصابروا، ورابطوا عليهم بالثغور، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة، والغضب، فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الموطنين.

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقـهور، فـخذوا عليـه طريق الشهـوة، ودعوا طريق الغـضب، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليـه أغلب، فلا تدخلوا طريق الشهوة قلبـه، ولا تعطلوا ثغرها، فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحرى أن لا يملكها عند الغضب من طريق الشهوة، فزوجوا بين غضبه وشهوته، وامزجوا أحدهما بالآخر، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب، وإلى الغضب من طريق الشهوة.

واعلمـوا أنه ليـس لكم في بني آدم سـلاح أبلغ من هـذين السـلاحين، وإنما أخرجت أباهم من الجنة بالشـهوة، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغـضب، فبه قطعت أرحامهم، وسفكت دماءهم، وبه قتل أحد ابني آدم أخاه.

واعلموا أن الغـضب جمرة قلب ابن آدم، والـشهوة نار تثـور من قلبه، وإنما تطفأ النار بالماء، والصلاة، والـذكر والتكبير، فإياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غـضبه وشهوته من قربان الوضوء والصـلاة، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيـهم بذلك، فقال: «**إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بذلك فليتوضأ**»[١]، وقـال لهم: «**إنما تطفأ النار بالماء**»[٢]، وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكمبالصبر والصلاة، فحولوا بينهم وبين ذلك وأنسوهم إياه واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة، واتباع الهوى.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٩١)، والطيالسي (٢١٥١)، والحـميدي (٧٥٢)، وأبو يعلى (١١٠١)، وعبد ابن حميد (٨٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣٨١٧)، من حديث أبي سعيد ﷺ، وفي سنده، علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف كما في «التقريب» (١/٤٠١)، وقد تفرد به بهذا السياق.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٨٤)، وأحـمد (٤/٢٢٦)، والطبـراني في «الكبـير» (١٧/١٦٧) من حـديث عروة بن محمد السعدي عن أبيه عن جده عطية، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٨٢).

وأعظم أسلحتهم فيكم، وأمنع حصونهم: ذكر الله، ومخالفة الهوى، فإذا رأيتم الرجل مخالفًا لهواه فاهربوا من ظله، ولا تدنوا منه.

والمقصود: أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل:

مَا يَبلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

ومن العجائب: أن العبد يسعى بجهده في هوان نفسه، وهو يزعم أنه لها مكرم. ويجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها وهو يزعم أنه يسعى في حظها، ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدسيتها، وهو يزعم أنه يُعليها، ويرفعها، ويكبرها.

وكان بعض السلف يقول في خطبته: ألا رُبَّ مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحفظها، وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه، والله المستعان.

❑ ❑ ❑

فصل

ومن عقوباتها: أنها تنسي العبد نفسه. وإذا نسي نفسه أهملها، وأفسدها، وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩]

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها، وفلاحها، وصلاحها، وما تكمل به نفسه، ينسيه ذلك جميعه، فلا يُخطره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته، فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضًا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضًا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تئول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة. فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها، ونسي مصالحها، وداءها، ودواءها، وأسباب سعادتها، وفلاحها، وصلاحها، وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟.

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا، واشتروا، واتجروا، وباعوا آجلاً بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائبًا بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أحدهم:

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به

كيف أبيع حاضرًا نقدًا مشاهدًا في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غيرها؟ وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان، وقوة داعي الشهوة، ومحبة العاجلة، والتشبه ببني الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦].

وقال فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦].

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتتقطع عليها النفوس حسرات.

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيًا بباق، وخسيسًا بنفيس، وحقيرًا بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار البتة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٢، ٤٦] .

وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ﴾ [الأحقاف:٣٥] .

وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٢، ١١٤] .

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٢، ١٠٤] .

فهذه حقيقة الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلما علموا قلة لبثهم فيها، وأن لهم دار غير هذه الدار، هي دار الحيوان ودار البقاء- رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدار الدنيا بائع مشتر متجر، و «كلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائع نَفْسَهُ، فمعْتَقها أو مُوبِقُهَا»[١] .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١] .

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة، فاتجروا أيها المفلسون، ويا من لا يقدر على هذا الثمن، هنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، وابن ماجة (٢٨٠)، وأحمد (٥/٣٤٢)، والدارمي (٦٥٣)، وابن حبان (٨٤٤)، والبيهقي (١/٤٢)، من حديث أبي مالك الأشعري.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠، ١١].

والمقصود: أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استُجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببًا وآفة: سببًا يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره، وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم على معصية الله، كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه.

فأي جهل أبلغ من هذا؟! وأي ظلم للنفس فوق هذا؟! فالحكم لله العلي الكبير.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تباعد عن العبد وليه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه، وأغش الخلق له، وأعظمهم ضررًا له، وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار: «إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نتن ريحه»[1] فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه؟!

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكرُ الذكرَ عجّت الأرض إلى الله، وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت.

وقال بعض السلف: إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان.

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم، والطاعة، والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]

وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم، فثبته وعلمه، وقوي

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٨٣)، وابن عدي في **«الكامل»** (٥/ ٢٨٣)، من حديث ابن عمر ﷺ. من طريق عبد الرحيم بن هارون الغساني عن عبد العزيز بن أبي داود عن نافع عن ابن عمر به. وإسناده واهٍ من أجل عبد الرحيم بن هارون الغساني، قال في **«التقريب»** (١/ ٣٥٤): ضعيف وكذبه الدارقطني، وقال صاحب «العلل المتناهية» (٢/ ٧٧٤): هذا حديث لا يصح وعبد العزيز -بن أبي رواد- يروي نسخة موضوعة، منها هذا الحديث وكان يحدث بها توهمًا لا تعمدًا فسقط الاحتجاج به. اهـ. والحديث ضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٨٠)، و**«الضعيفة»** (١٨٢٨).

جنانه وأيده، قال تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأنفال: ١٢]. فيقول له الملك عند الموت: «**لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك**»(١) ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعًا وموقوفًا: «**إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق**»(٢) .

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

وفي الحديث: «**إن السكينة تنطق على لسان عمر**»(٣) رضي الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الملك، ويسمع

---

(١) جزء من حديث البراء بن عازب الطويل وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٥١)، وأبو يعلى (٤٩٩٩)، وابن حبان (٩٩٧)، والطبري في «التفسير» (٣/ ٨٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفي إسناده عطاء بن السائب صدوق يخطئ كثيراً والأصوب أنه موقوف، قال أبو زرعة الرازي : الناس يوقفونه عن عبد الله، وهو الصحيح. اهـ. «علل ابن أبي حاتم» (٢/ ٢٤٤). والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٦٣).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٠٦)، وفي «فضائل الصحابة» (٥٠/ ٣١٠، ٤٧٠، ٦١٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٣٧٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٥٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٢). من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وله شاهد بلفظ : «**إن الله جعل الحق على لسان عمر**» - رواه الترمذي (٣٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٥٣)، وابن حبان (٦٨٩٥)، والطبراني في «الأوسط» (٣٣٣٠)، وعبد بن حميد (٧٥٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه. =

ضدها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقي بالقلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي: أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته، وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه، كما اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت! فقال: «**كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس**»[(١)]

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمن الملك على دعائه، وقال: «**ولك بمثله**»[(٢)] . وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه[(٣)].

وإذا أذنب العبد المؤمن المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله[(٤)].

= - ورواه أحمد (٢/ ٤٠١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٥٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢٤٧)، وابن حبان (٦٨٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- ورواه أبو داود (٢٩٦٢)، وأحمد (٥/ ١٧٧)، وابن أبي عاصم (١٢٤٩)، وابن ماجة (١٠٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(١) رواه أبو داود (٤٨٩٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٨٤)، عن سعيد بن المسيب مرسلاً، ورواه أبو داود (٤٨٩٧)، وأحمد (٢/ ٤٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٩٠): رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح. اهـ.

والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٧٦).

(٢) لقوله ﷺ : «**إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب، قالت الملائكة: ولك بمثل**» رواه مسلم (٢٧٣٢)، وأبو داود (١٥٣٤)، عن أبي الدرداء.

(٣) لقوله ﷺ : «**إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**» رواه البخاري (٧٨٢)، ومسلم (٤١٠)، من حديث أبي هريرة.

(٤) قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ [غافر: ٧].

وإذا نام على وضوء بات في شعاره ملك[(١)].

فملك المؤمن يرد عنه، ويحارب ويدافع عنه، ويعلمه، ويثبته، ويشجعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين، والإحسان إلى الجار، من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟! وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش، دعا عليه ربه، وقال: «لا جزاك الله خيرًا» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة ﷺ: «إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم».

ولا ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر، ولا يجله ولا يوقره، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار: ١٠: ١٢] أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر، ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟! والله المستعان.

فصل

ومن عقوباتها: أنها تستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولابد، وكما أن البدن لا يكون صحيحًا إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة، والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره فكذلك القلب لا تتم

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «**ما بات على طهارة، بات في شعاره ملك**» رواه ابن حبان (١٠٥١)، والطبراني في «الكبير» (١٢/٤٤٦) عن ابن عمر، وله شاهد من حديث ابن عباس وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٣١).

حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة، تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح تستخرج بها المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ الصحة، وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة.

والتقوى: اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها، فات من التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح.

فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمي لها، كيف تكون صحته وبقاؤه؟! ولقد أحسن القائل:

جِسْمُكَ بالحِمْيَةِ حَصَّنْتَهُ خافةً من ألمٍ طاري
وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي خشيةَ النَّارِ

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا، والله المستعان.

فصل

فإن لم تردعك هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيرًا في قلبك فأحضر العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم، كما قطع اليد في سرقة ثلاثة دراهم، وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن، أو قطرة خمر يدخلها جوفه، وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان بمائة جلدة، وبنفي سنة عن وطنه وبلده إلى بلاد الغربة، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم منه، أو ترك الصلاة المفروضة، أو تكلم بكلمة كفر، وأمر بقتل من وطئ ذكرًا مثله، وقتل المفعول به، وأمر بقتل من أتى

بهيمة، وقتل البهيمة معه، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها على الجرائم، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها.

فما كان الوازع عنه طبيعيًّا، وليس في الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير، ولم يرتب عليه حدًّا، كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة.

وما كان في الطباع داعٍ إليه، رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته، وبقدر داعي الطبع إليه.

ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنا من أقوى الدواعي، كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب. ولما كانت جريمة اللواط فيها الأمران، كان حده القتل بكل حال. ولما كان داعي السرقة قويًّا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد.

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر العبد به الجناية، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها، فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل: فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟

قيل: لوجوه.

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية، إذ فيه قطع النسل، وتعريضه للهلاك.

الثاني: أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة، بخلاف قطع اليد.

الثالث: أنه إذا قطع يده أبقى له يدًا أخرى تعوض عنها، بخلاف الفرج.

الرابع: أن لذة الزنا عمت جميع البدن، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن، وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه.

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه، وأوفقها للعقل، وأقومها بالمصلحة.

والمقصود: أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية، أو القدرية، أو يجمعهما الله للعبد، وقد يرفعهما عمن تاب وأحسن.

فصل

وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية وقدرية، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، ولم يكف في زوال دائه. وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية، وربما كانت أشد من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها تعم، والشرعية تخص، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعًا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة، وإذا رأى الناس المنكر، فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمهم الله بعقابه.

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب، وتقاضي الطبع له، وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع: القتل، والقطع، والجلد، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه، وهو الزنا واللواط فإن هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأنساب ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد القتل ذنبًا أعظم من الزنا واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**»[1]. فأنزل الله سبحانه

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦)، والترمذي (٣١٨٢)، وأبو داود (٢٣١٠)، والنسائي (٤٠١٣)، وأحمد (١/ ٣٨٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل، فإنه سأله عن أعظم الذنب، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها، وما هو أعظم كل نوع.

فأعظم أنواع الشرك: أن يجعل العبد لله ندًّا.

وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه.

وأعظم أنواع الزنا: أن يزني بحليلة جاره، فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق.

فالزنا بالمرأة التي لها زوج أعظم إثمًا وعقوبة من التي لا زوج لها، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه، فهو أعظم إثمًا وجرمًا من الزنا بغير ذات البعل.

فالزنا بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة لها زوج، فإن كان زوجها جارًا له انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى، وذلك أعظم البوائق.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[1] ولا بائقة أعظم من الزنا بامرأة الجار.

فإن كان الجار أخًا أو قريبًا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم له، فإن كان الجار غائبًا في طاعة الله كالصلاة، وطلب العلم، والجهاد تضاعف له الإثم، حتى إن الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة، ويقال: خذ من حسناته ما شئت، قال النبي ﷺ : «**فما ظنكم؟**»[2] أي

---

(١) رواه مسلم (٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢١)، وأحمد (٢/ ٣٧٣)، وأبو يعلى (٢٤٦)، من حديث أبي هريرة ورواه البخاري (٦٠١٦)، من حديث أبي شريح.

(٢) رواه مسلم (١٨٩٧)، وأبو داود (٢٤٩٦)، والنسائي (٣١٨٩)، وأحمد (٥/ ٣٥٢)، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

ما ظنكم أنه يترك له من حسنات، قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقًّا يجب عليه؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحمًا منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها، فإن اتفق أن يكون الزاني محصنًا كان الإثم أعظم، فإن كان شيخًا كان أعظم إثمًا، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم [1]، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام، أو بلد حرام، أو وقت معظم عند الله، كأوقات الصلاة، وأوقات الإجابة تضاعف الإثم، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة، والله المستعان.

فصل

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذي لا يمكن الاحتراز منه؛ لأنه يأخذ الأموال في الاختفاء، وينقب الدور، ويتسور من غير الأبواب فهو كالسنور والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم، فلم ترتفع مفسدة سرقته إلى القتل، ولا تندفع بالجلد، فأحسن ما دفعت به مفسدته، إبانة العضو الذي يتسلط به على الجناية، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول، وتمزيق الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع: العتق- وهو أعلاها- والإطعام، والصيام.

ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام:

قسمًا فيه الحد، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد.

وقسمًا لم يرتب عليه حدًّا فشرع فيه الكفارة كالوطء في نهار رمضان، والوطء في الإحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والحنث في اليمين، وغير ذلك.

---

(١) لقوله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر» رواه مسلم (١٠٧)، والنسائي (٢٥٧٤)، وأحمد (٢/ ٤٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقسمًا لم يرتب عليه حدًّا ولا كفارة، وهو نوعان:

أحدهما: ما كان الوزاع عنه طبيعيًّا، كأكل العذرة، وشرب البول والدم.

والثاني: ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد، كالنظر والقبلة واللمس، والمحادثة، وسرقة فلس، ونحو ذلك.

وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع:

أحدها: ما كان مباح الأصل، ثم فرض تحريمه، فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم، كالوطء في الإحرام والصيام، وطرده الوطء في الحيض والنفاس، بخلاف الوطء في الدبر، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح، فإنه لا يباح له في وقت دون وقت، فهو بمنزلة التلوط، وشرب المسكر.

النوع الثاني: ما عقده لله من نذر أو بالله من يمين، أو حرمه الله ثم أراد حله، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث، كما ظنه بعض الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًّا، وقد يكون مباحًا، وإنما الكفارة حل لما عقده.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرة لما فات، ككفارة قتل الخطأ، وإن لم يكن هناك إثم، وكفارة قتل الصيد خطأ، فإن ذلك من باب الجوابر، والنوع الأول من باب الزواجر، والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد.

ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية، بل إن كان فيها حدًّا اكتفي به وإلا اكتفي بالتعزير، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها، وما فيه كفارة فلا حد فيه، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها؟ فيه وجهان، وهذا كالوطء في الإحرام والصيام، ووطء الحائض، وإذا أوجبنا فيه الكفارة، فقيل: يجب التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية، وقيل: لا تعزير في ذلك، اكتفاء بالكفارة، لأنها جابرة وماحية.

فصل

أما العقوبات القدرية فهي نوعان: نوع على القلوب والنفوس، ونوع على الأبدان والأموال.

والتي على القلوب نوعان:

أحدهما: آلام وجودية يضرب بها القلب.

والثاني: قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه.

وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها، وعقوبة القلب أشد العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان.

وهذه العقوبة تقوى وتتزايد، حتى تسري من القلب إلى البدن، كما يسري ألم البدن إلى القلب، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقًا بها، فظهرت عقوبة القلب حينئذٍ، وصارت علانية ظاهرة، وهي المسماة بعذاب القبر، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار.

فصل

والتي على الأبدان أيضًا نوعان:

نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة.

وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتبت عليه في الشدة والخفة، فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها، فالشر اسم لذلك كله، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: «**ونعوذُ بالله من شُرور أنفُسنا، ومن سيئات أعمالنا**»[1] وسيئات الأعمال من شرور النفس، فعاد الشر كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من

---

(١) رواه أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجة (١٨٩٢)، وأحمد (١/ ٣٩٢)، والدارمي (٢٢٠٢)، وابن حبان (١٩٦٢)، والدارقطني (١/ ٣٥٣)، والبيهقي (٣/ ٢١٥)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: «**ومن سيئات أعمالنا**» هل معناه السيئ من أعمالنا، فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه ويكون بمعنى من أو تكون «من» بيانية؟ وقيل: معناه من عقوباتها التي تسوء، فيكون التقدير: ومن عقوبات أعمالنا التي تسوؤنا، ويرجح هذا القول: أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة، وهي تستلزم العقوبات السيئة، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها منه، إذ هو أصله، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهي السيئات التي تسوء العبد من عمله، من العقوبات والآلام، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفرعه وغايته، ومقتضاه، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ**﴾ [غافر:٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء، وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله: ﴿**وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ**﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ.

فإن قيل: فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئات التي سألوا وقايتها، الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ.

ولا يرد على هذا قوله: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهي سيئات في أنفسها.

قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان، والعمل الصالح،

والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه، وسعة رحمته، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم، وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم، إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به، أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته، فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل التي يحبها، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين- من أصولهم وفروعهم وأزواجهم- جنات عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد، فإنه وعدهم بها بأسباب، من جملتها: دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالهم، وأقام ملائكته يدعون لهم بها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٩] أي: مصدر ذلك، وسببه، وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما شاء، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر.

والمقصود: أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية، وعقوبات قدرية، وهي إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم حشر الأجساد، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبات، لأنه بمنزلة السكران والمخدر، والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم، فترتب العقوبات على

الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، والغرق على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها، وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه، إما يسيرًا وإما مدة، كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه، وكثيرًا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئًا فشيئًا، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القُذَّة بالقذة[1]، فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنبًا واحدًا لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة؟! والله المستعان.

فصل

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب، وجوز وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة، والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما»[2].

---

(١) القذة، ريشة السهم، ويجب أن تكون متساوية ومحاذية لجارتها في السهم، وقوله: «حذو القذة بالقذة» مثل يضرب للمساواة التامة والمتابعة.

(٢) رواه أحمد (٣/١٧)، وابنه في «السنة» (١/٣٧٨)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٣٩)، وأبو=

ومنها: التثبيط عن الطاعة، والإقعاد عنها.

ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى، والصمم، والبكم، للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية: **﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** [الحج:٤٦] وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، كيف وقد قال تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾** [النور:٦١] وقال: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾** [عبس:١، ٢] وإنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال النبي ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»** (١)، وقوله ﷺ: **«ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه»** (٢)، ونظائره كثيرة.

والمقصود: أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى، أصم، أبكم.

ومنها: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل السافلين، وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالاً حول السفليات، والقاذورات، والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالاً حول العرش.

ومنها: البعد عن البر، والخير، ومعالي الأعمال، والأقوال، والأخلاق.

قال بعض السلف: «إن هذه القلوب جوالة، فمنها ما يجول حول العرش،

= نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٦٨) موقوفًا. ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٢٢٨) عن أبي سعيد مرفوعًا وإسناده ضعيف.

(١) رواه البخاري (٦١١٣)، ومسلم (٢٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٦)، من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩)، وأبو داود (١٦٣١)، والنسائي (٢٥٧١)، وأحمد (١/ ٣٨٤)، وابن خزيمة (٢٣٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومنها ما يجول حول الحُش» .

ومنها: مسخ القلب، فيمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه، وأعماله، وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خلق قلب كلب، أو حمار، أو حية، أو عقرب، وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام:٣٨] قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاوس في ريشه، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنًا حيث تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيًّا، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كل أحد ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر! وقلب ممسوخ وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه! مغرور بستر الله عليه! ومستدرج بنعم الله عليه! وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة.

ومنها: مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته للقلب الزائغ عن الحق.

ومنها: نكس القلب حتى يرى الباطل حقًّا، والحق باطلاً، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، ويفسد ويرى أنه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو

إليها، ويشتري الضلالة بالهدى، وهو يرى أنه على الهدى، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب.

ومنها: حجاب القلب عن الرب في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٤، ١٥] فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم، فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها، وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته، وتقر به عينًا وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين قلوبهم، وحجابًا بينهم وبين ربهم وخالقهم.

ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه:١٢٤] وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك. والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعيم. ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه. وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسول ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده. ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل

صالحًا كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا والحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، وهم أحياء في الدارين.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس، وسرور القلب، وفرحه، ولذته، وابتهاجه، وطمأنينته، وانشراحه، ونوره، وسعته، وعافيته- من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، وهو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إن في الدنيا جنة، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**»[١]، وقال: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠)، وأحمد (٣/ ١٥٠)، من حديث أنس رضي الله عنه وإسناده ضعيف من أجل محمد بن ثابت البناني، قال عنه البخاري: فيه نظر، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: ضعيف، وانظر «الضعفاء والمجروحين» (٢/ ٢٥٢).

(٢) رواه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩١)، والترمذي (٣٩١٥)، والنسائي (٦٩٤)، وأحمد (٤/ ٤١)، من حديث علي وأبي هريرة.

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤] مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته، والعمل على موافقته؟.

وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣، ٨٤]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغل، والحقد، والحسد، والشح، والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوىً يناقض التجرد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادًا لا تنحصر.

ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها.

فإن الصراط المستقيم يتضمن علومًا وإرادات وأعمالاً وتروكًا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد تريده نفسه، وقد لا

تريده كسلاً وتهاونًا، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله، وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الإخلاص، وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة، قد يثبت عليه، وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سارٍ في الخلق، فمستقل ومستكثر.

وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله، وهذا هو الإركاس(١) الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلى طباعهم، وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه، وقدره، ونهيه، وأمره، فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله، ورحمته، وجعله الهداية حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله، وحكمته، لعدم صلاحية المحل، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطًا مستقيمًا يوصلهم إليه، فهو على صراط مستقيم.

ونصب لعباده من أمره صراطًا مستقيمًا دعاهم جميعًا إليه حجة منه وعدلاً، وهدى من يشاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل، عن صراطه المستقيم الذي هو عليه، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطًا مستقيمًا يوصلهم إلى جنته، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله، وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نورًا ظاهرًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه، كما أطفأه في قلوبهم في الدنيا.

وأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كلاليب(٢) وحسكًا(٣) تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه، وجعل قوة سيرهم، وسرعتهم عليه على

(١) الإركاس: هو إيقاعهم في الأمر وعدم إخراجهم منه.
(٢) الكلاليب: جمع «كلوب» وهو حديدة معقوفة الرأس يعلق بها الشيء أو يجر.
(٣) الحَسَك: نوع من الأشواك.

قدر قوة سيرهم، وسرعتهم إليه في الدنيا، ونصب للمؤمنين حوضًا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا، وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا[1].

فانظر إلى الآخرة كأنها رأي عين، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين، تعلم حينئذٍ علمًا يقينًا لا شك فيه، أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأنموذجها، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدهما، وبالله التوفيق.

فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها، تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها.

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزًا جامعًا، فنقول: أصلها نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس.

وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب.

وباعتبار متعلقه إلى حق الله، وحق خلقه.

وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه، لكن سمي حقًّا للخلق، لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

فالذنوب الملكية: أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية، كالعظمة،

---

(١) انظر في أحاديث (الحوض): ١- شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٢٦، ٢٣٠) ط: البصيرة.
٢- «المختارات السلفية لشرح الواسطية» (٣/ ٩٠- ٩٧)، ط: دار البصيرة بتحقيقي.

والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل في هذا الشرك بالرب تعالى، وهو نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب، فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه، وجعل له نداً، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

فصل

وأما الشيطانية: فالتشبه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله، وتحسينها، والنهي عن طاعته، وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

فصل

وأما السبعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية فمثل: الشره، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنا، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية، والشرك في الوحدانية.

ومن تأمل هذا حق التأمل، تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر، ومنازعة الله في ربوبيته.

فصل

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر، قال تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾[النساء:٣١]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ**﴾[النجم:٣٢].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[١].

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر، ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوم على تكفير الصغائر، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

فتأمل هذا، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور**»[٢].

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق،**

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وأحمد (٢/ ٤٠٠)، والبيهقي (١٠/ ١٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧)، والترمذي (٢٣٠١)، وأحمد (٣/ ١٣١)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[١] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه سئل: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تدعو لله ندًا وهو خلقك**» ، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» ، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**» ، فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾ [الفرقان:٦٨] .

واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ على قولين.

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها، فقال عبد الله بن مسعود: هي أربع، وقال عبد الله بن عمر: هي سبع، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي تسع، وقال غيره: هي إحدى عشرة، وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة، فوجدتها أربعة في القلب، وهي الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربعة في اللسان وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاث في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنان في الفرج وهما: الزنا، واللواط. واثنان في اليدين وهما: القتل، والسرقة. وواحد في الرجلين، وهو: الفرار من الزحف. وواحد يتعلق بجميع الجسد، وهو عقوق الوالدين.

والذين لم يحصروها بعدد، منهم من قال: كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه رسول الله ﷺ فهو صغيرة.

وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٣٦٧٠)، والبيهقي (٦/ ٢٨٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ .

وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم يترتب عليه لا هذا ولا هذا، فهو صغيرة.

وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة.

وقيل: هي كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء: ٣١].

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره كبائر، فالنظر إلى من عصى أمره وانتهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ولهذا لو شرب رجل خمرًا، أو وطئ فرجًا حرامًا، وهو لا يعتقد تحريمه، لكان قد جمع بين الجهل، وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتيًا بإحدى المفسدتين، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول، فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع، ونهيه، وانتهاك حرمته، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب.

قالوا: فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه، وعظمته، وانتهاك حرمته بالمعصية، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية، فإن ملكًا مطاعًا عظيمًا لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهم له إلى بلد بعيد، وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار، فعصياه وخالفا أمره،

لكانا في مقته والسقوط من عينه سواء.

قالوا: ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة، ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد، أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها، ومع آخر مائتا ألف ألف فمنع من زكاتها لاستويا في منع ما وجب على كل واحد منهما، ولا يبعد استواؤهما في العقوبة، إذا كان كل منهما مصرًّا على منع زكاة ماله، قليلاً كان المال أو كثيراً.

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال:

إن الله عز وجل أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السموات والأرض، ليعرف، ويعبد، ويوحد، ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧].

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يُعرف بأسمائه وصفاته، ويُعبد وحده لا يُشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط وهو العدل،

ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات. فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي، فلما كان الشرك بالله منافيًا بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد[1]، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم. لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة، أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقيل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه ندًا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه.

فصل

ووقعت مسألة، وهي: أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدلني، وتدخلني عليه، فهو المقصود، وهذه وسائل وشفعاء، فَلِمَ كان هذا القدر موجبًا لسخطه، وغضبه تبارك وتعالى، ومخلدًا في النار، وموجبًا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟!.

وترتب على هذا سؤال آخر، وهو أنه: هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء، والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما ليستفيد من الشرع، أم

---

(١) لقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله» الحديث رواه البخاري (٦٩٢٤)، ومسلم (٢٠).

ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة؟ بل جاءت الشرائع بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح، وما السر في كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

فتأمل هذا السؤال، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه، فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين، والعالمين بالله والجاهلين به، وأهل الجنة وأهل النار.

فنقول، وبالله التوفيق والتأييد، ومنه نستمد المعونة والتسديد، فإنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع:

الشرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود، وأسمائه، وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

والشرك الأول نوعان:

أحدهما شرك التعطيل: وهو أقبح الشرك، كشرك فرعون إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] وقال تعالى مخبرًا عنه أنه قال لهامان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٦، ٣٧].

والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه عطل حق التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليه، هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه، وأوصافه، وأفعاله.

وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثَم خالق ومخلوق ولا ههنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب، ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها بالعقول، والنفوس، ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى، وأوصافه، وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا له اسمًا ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

فصل

النوع الثاني: شرك من جعل مع الله إلهًا آخر ولم يعطل أسماءه، وصفاته، وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا، وأمه إلهًا.

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا أشباه المجوس.

ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه: ﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾[البقرة:٢٥٨] ، فهذا جعل نفسه ندًّا لله تعالى، يحيي ويميت بزعمه، كما يحيي الله ويميت، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي بها الله منها، وليس هذا انتقالاً كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزامًا على طرد الدليل إن كان حقًّا.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها أربابًا مدبرة

لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا شرك عباد الشمس، وعباد النار، وغيرهم.

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وإنه إذا خصه بعبادته التبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه، فتارة تكثر الآلهة والوسائط وتارة تقل.

فصل

وأما الشرك في العبادة: فهو أسهل من هذا الشرك، وأخف أمرًا فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا يضر، ولا ينفع، ولا يعطي، ولا يمنع إلا الله، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، ولكن لا يخص الله في معاملته، وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة، فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، وهذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة**»، قالوا: كيف ننجوا منه يا رسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»(١) .

فالرياء كله شرك، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف:١١٠] .

---

(١) رواه البخاري في «الأدب» (٧١٦)، وأبو يعلى (٥٨)، والضياء في «المختارة» (٦٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١١٢)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه ، وفي سنده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

- ورواه أحمد (٤/ ٤٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣).

أي: كما أنه إله واحد، ولا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب ﷺ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[1].

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمل، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة:٥].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير الذي أمر به، فلا يصح، ولا يقبل منه، ويقول الله: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء**»[2].

وهذا الشرك ينقسم إلى: مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلى: كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفورًا، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم، أن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة:١٦٥].

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء،

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١١٨)، من طريق الحسن البصري عن عمر، والحسن لم يسمع من عمر.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجة (٤٢٠٢)، وأبو يعلى (٦٥٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨١٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

والملك، والقدرة، وإنما سووهم به في الحب، والتأله، والخضوع، والتذلل لهم، وهذا غاية الجهل والظلم. فكيف يُسوى التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب؟! وكيف يسوي الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته، وملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟!

فأي ظلم أقبح من هذا؟ وأي حكم أشد جورًا منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه، كما قال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام:١] فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيا له من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه!!

فصل

ويتبع هذا الشركَ الشرك به سبحانه في الأفعال، والأقوال، والإرادات، والنيات.

فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها، والسجود لها، ولقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها، فكيف بمن اتخذ القبور أوثانًا يعبدها من دون الله؟!.

ففي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١).

(١) رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩)، وأحمد (١/٢١٨، ٥١٨- ٦/٣٤، ٨٠)، والنسائي (٧٠٢)، والدارمي (١٣٧٥)، وابن حبان (٢٣٢٧)، من حديث عائشة.

وفي الصحيح عنه: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**»(١) .

وفي الصحيح أيضًا عنه: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(٢) .

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه، وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم قال: «**لعن الله زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج**»(٣) .

وقال: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٤) .

وقال: «**إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»(٥) .

فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر، فكيف حال من سجد للقبر نفسه؟.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»(٦) ، وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٥، ٤٣٥)، وابن حبان (٦٨٤٧)، وأبو يعلى (٥٣١٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٨٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٧): وإسناده حسن.

(٢) رواه مسلم (٥٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٣)، وابن حبان (٦٤٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٧٦)، من حديث جندب بن عبد الله.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه مالك (١/ ١٧٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٤١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤١)، عن عطاء بن يسار مرسلاً، ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٨٧) عن زيد بن أسلم مرسلاً، ووصله البزار «كشف الأستار / ٤٤٠» وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه، وصححه الألباني -رحمه الله- في «تحذير الساجد» (ص ١٨، ١٩).

(٥) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨)، والنسائي (٧٠٣)، وأحمد (٦/ ٥١)، وابن حبان (٣١٨١)، وابن خزيمة (٧٩٠)، والبيهقي (٤/ ٨٠)، وأبو يعلى (٤٦٢٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٦) سبق تخريجه قبله بحديثين.

والصبح، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

وأما السجود لغير الله فقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله**»[١] .

و «**لا ينبغي**» في كلام الله ورسوله ﷺ الذي هو في غاية الامتناع شرعًا، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾ [مريم:٩٢] وقوله: ﴿**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ [يس:٦٩] وقوله: ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ**﴾ [الشعراء:٢١٠، ٢١١] وقوله عن الملائكة: ﴿**مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ**﴾ [الفرقان:١٨] .

فصل

ومن الشرك به سبحانه: الشرك به في اللفظ، كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[٢] صححه الحاكم وابن حبان .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندًا؟ قل: ما شاء الله وحده**»[٣] .

هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**﴾

---

(١) روي ذلك عن جمع من الصحابة : فقد رواه الترمذي (١١٥٩)، وابن حبان (٤١٦٢)، والبيهقي (٧/ ٢٩١)، من حديث أبي هريرة. ورواه أبو داود (٢١٤٠)، والدارمي (١٤٦٣)، من حديث قيس بن سعد. ورواه أحمد (٥/ ٢٢٧)، من حديث معاذ. ورواه أحمد (٤/ ٣٨١)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٣١)، والبيهقي (٧/ ٢٩٢) من حديث عبد الله ابن أبي أوفي، وفي الباب من حديث عائشة وابن عباس، وأنس والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٧٠، ٥١٧١)، والإرواء (٢٠٥٨).

(٢) رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ٣٤، ٨٦، ١٢٥)، وابن حبان (٤٣٥٨)، والبيهقي (١٠/ ٢٩)، والحاكم (١/ ١٨-٤/ ٢٩٧)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٨٠)، و«الصحيحة» (٢٠٤٢) من حديث ابن عمر.

(٣) رواه البخاري في «الأدب» (٧٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥)، وأحمد (١/ ٢١٤)، وابن ماجة (٢١١٧)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩) .

[التكوير: ٢٨] فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء، وأنت لي في الأرض، أو يقول: والله وحياة فلان، أو يقول: نذرًا لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، أو أرجو الله وفلانًا، ونحو ذلك؟

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش! يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل لله ندًا بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء- بل لعله أن يكون له من أعدائه- ندًا لرب العالمين، فالسجود، والعبادة، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والحسب، والتوبة، والنذر، والحلف والتسبيح، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق لله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وفي مسند الإمام أحمد: أن رجلاً أتي به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال: «**عرف الحق لأهله**»[1] .

فصل

وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله أو نوى شيئًا غير التقرب إليه، وطلب

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٣٥)، والضياء في «المختارة» (١٤٦٠)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢٨٦)، من طريق محمد ابن مصعب ثنا سلام بن مسكين والمبارك عن الحسن عن الأسود بن سريع مرفوعًا به وهذا إسناد ضعيف: محمد بن مصعب بن صدقة القرقسائي، قال أحمد: حديثه مقارب وضعفه البقية «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٠٤) والحسن لم يصح سماعه عن الأسود كما في «تهذيب التهذيب» (١/ ٢٩٥) والحديث ضعفه الألباني -رحمه الله- في «ضعيف الجامع» (٣٧٠)، و«الضعيفة» (٣٨٦٢).

الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخــلاص: أن يخلص لله في أقواله، وأفعــاله، وإرادته، ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عــباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقــيقــة الإسلام ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران:٨٥] وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فــهو من أسفه السفهاء.

فصل

إذا عرفت هذه المقــدمة انفتح لك الجــواب عن السؤال المذكــور، فنقول، ومن الله وحده نستمد الصواب:

حقيقة الشرك: هو التشبه بالخالق، والتشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمــال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ، فعكس من نكس الله قلبه، وأعمى عين بصيــرته، وأركسه بكسبه، وجعل التوحيــد تشبيهًــا، والتشبيــه تعظيمًا وطاعة، فالمــشرك مُشبه للمــخلوق بالخالق في خصائص الإلهية.

فإن من خصــائص الإلهيــة: التفرد بمــلك الضر، والنفع، والعطاء، والمنع وذلك يوجب تعليق الدعــاء، والخوف، والرجــاء، والتــوكل به وحده، فــمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضــرًا، ولا نفعًــا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشــورًا فضلاً عن غيــره شبيهًــا لمن له الأمر كله فأزمة الأمــور كلها بيديه، ومرجعــها إليه، فما شاء كان ومــا لم يشأ لم يكن، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمــته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات.

ومن خصــائص الإلهيــة: الكمال المطلق من جمــيع الوجوه، الذي لا نقص فيه

بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم، والإجلال، والخشية، والدعاء، والرجاء، والإنابة، والتوبة، والتوكل، والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون له وحده، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين. فمن أعطى حبه، وذله، وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا على نور: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

إذا عرف هذا، فمن خصائص الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به.

ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها: التوبة: فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها: الحلف باسمه تعظيمًا وإجلالاً له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا في جانب التشبيه.

وأما في جانب التشبه به: فمن تعاظم، وتكبر، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح، والتعظيم، والخضوع، والرجاء وتعليق القلب به خوفًا، ورجاء، والتجاء، واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية

الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»(١)، وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده، من أشد الناس عذابًا يوم القيامة، لتشبهه بالله في مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية؟!

كما قال النبي ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»(٢).

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»(٣) فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر.

والمقصود: أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته؟وكذلك من تشبه بالاسم الذي لا ينبغي إلا له وحده، كملك الملوك، وحاكم الحكام، ونحوه.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أخنع الأسماء عند الله رجل يسمى بشاهنشاه- أي ملك الملوك- لا ملك إلا الله**»(٤) وفي لفظ: «**أغيظ رجل على الله، رجل يسمى بملك الملوك**»(٥).

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، فهو سبحانه ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم، ويقضي عليهم، لا غيره.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجة (٤١٧٤)، وأحمد (٢/ ٤١٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٥٩٣٥)، ومسلم (٢١١١).

(٤) رواه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣)، وأبو داود(٤٩٦١)، والترمذي (٢٨٣٧)، وأحمد (٢/ ٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم (٢١٤٣)، (٢١) وأحمد (٢/ ٣١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

إذا تبين هذا، فهـهنا أصل عظيم يكشف سر المسـألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن به ما يناقض أسمـاءه، وصفاته، ولهذا توعد الله سبـحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهـم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦] وقال تعالى لمن أنكر صفة من صـفـاته: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٨٥، ٨٧] أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتمـوه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبـدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسـمائه وصفاته وربوبيـته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلـى عبودية غيره، فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل مـا سواه فقير إليه، وأنه قـائم بالقسط على خلقه وأنه المنفرد بتدبير خلقـه، لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفـاصيل الأمور، فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحـده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم محـتاجون إلى من يعرفهم أحـوال الرعية وحوائجهم، ويعـينهم على قضاء حوائجهم، وإلى مـن يسترحمهم ويسـتعطفهم بالشفـاعة، فاحتـاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فـأما القـادر على كل شيء، الغـني بذاته عن كل شيء، العـالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسـعت رحمته كل شيء، فإدخـال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العـقول والفطر جوازه، وقبحه مـستقر في العقول السلـيمة فوق

كل قبيح.

يوضح هذا: أن العابد معظم لمعبوده، مُتأله له، خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم، والإجلال، والتأله، والخضوع، والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

أي إذ كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية، التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي؟!

فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن سلبه الذباب شيئًا مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً، ولا أنزل

كتابًا، بل نسبه إلى مالا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدىً، وخلقهم باطلاً وعبثًا، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلا، فنفى سمعه، وبصره، وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته، ومشيئته، وخلقه، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علوًا كبيرًا.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد، ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذي جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحًا، فأعدل العادلين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير، ولا هو واقع بإرادته، بل ولا هو فعله البتة، ثم يعاقبه عليه عقوبة الأبد؟! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس، والطائفتان ما قدرا الله حق قدره.

وكذلك ما قدر الله حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره، بل جعله في كل مكان، وصانه عن عرشه أن يكون مستويًا عليه: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: ١٠].

وتعرج الملائكة والروح إليه، وتنزل من عنده ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ [السجدة: ٥].

فصانه عن استوائه على سرير الملك، ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدره حق قدره من نفى حقيقة محبته، ورحمته، ورأفته، ورضاه،

وغضبه، ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغـايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختياريًّا يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه، واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله، وأوصاف كماله، التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره.

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدًا، أو جعله سبحانه يحل في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداد رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل فيهم الملك، والخلافة، والعز، ووضع أولياء رسوله، وأهل بيته، وأهانهم، وأذلهم، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا، وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، تعالى عن قول الرافضة علوًّا كبيرًا.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين: إنه أرسل ملكًا ظالمًا، فادعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، ومكث زمنًا طويلاً يكذب عليه كل وقت، ويقول: قال الله كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم، وأموالهم، وحريمهم، ويقول: الله أباح لي ذلك، والرب تبارك وتعالى يؤيده، ويظهره، ويعليه، ويعزه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن خالفه، ويقيم الأدلة على صدقه، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، ويحدث أدلة تصديقه شيئًا بعد شيء.

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه، وحكمته، ورحمته، وربوبيته، تعالى عن قول الجاحدين علوًّا كبيرًا.

فوازن بين قول هؤلاء، وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما … بأسحم داج عوض لا نتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه جوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين، ويدخلهم دار النعيم، وإن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله.

وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧، ٢٨].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢١، ٢٢].

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥، ٣٦].

وكذلك لم يقدره حق قدره من يزعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه، ويكرم المتحملين للمشاق في هذه الدار من أجله، وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذين يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيُه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعته، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله، وهواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله إليه، واطلاعه عليه وهو في قبضته، وناصيته بيده، ويعظم نظر المخلوق عليه واطلاعه عليه بكل قلبه

وجوارحه، يستحي من الناس ولا يستحيي من اللـه، ويخشى الناس، ولا يخشى الله، ويعـامل الخلق بأفضل مـا يقدر عليـه وإن عـامل الله عامله بأهون مـا عنده وأحـقره، وإن قـام في خدمـة من يحبـه من البـشر قـام بالجد والاجـتهـاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه إن ساعده القدر قام قيامًا لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يـستحيي أن يواجه به مـخلوقًا مثله، فهل قـدر الله حق قدره من هذا وصفه؟.

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عـدوه في محض حقه من الإجلال، والتعظيم، والطاعة، والذل، والخضوع، والخوف، والرجاء؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكًا في ذلك لكان ذلـك جراءة، وتوثبًا على محض حقه، واسـتهانة به، وتشريكًا بينه وبين غيره، فيمـا لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه، فكيف وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق إليـه، وأهونهم عليه، وأمقتـهم عنده وهو عدوه على الحقيقة؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠، ٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقـعت عبادتهم في نفس الأمر للشياطين، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠، ٤١].

فالشيطان يدعـو المشرك إلى عبادته ويوهمه أنه ملك، وكذلك عـباد الشمس، والقمـر، والكواكب، يزعمـون أنهم يعبـدون روحانيـات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قـارنها الشيطان فيسجد لها الكافر، فيقع سجودهم له، وكذلك عـند غروبها، وكذلك من عبد المسيح وأمه

لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان.

فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه، ورضيها لهم، وأمرهم بها، وهذا هو الشيطان الرجيم، لا عبد الله ورسوله، فنزل هذا كله على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائنًا من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له، وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضا الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، أي: من إغوائهم وإضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله، ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية، والإلهية، والعظمة، والجلال، أن يأذن في مشاركته في ذلك، أو يرضى به؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق له الله الخلق، وأمر لأجله بالأمر، كان أكبر الكبائر عند الله.

وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم، فإن الله سبحانه خلق الخلق، وأنزل الكتاب، لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك.

وكذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر[(١)]، فلا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر[(٢)]. ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢].

فصل

ويلي ذلك في كبر المفسدة: القول على الله بلا علم في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فهذا أشد شيء مناقضة ومنافاة لحكمة من له الخلق والأمر، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثمًا عند الله.

فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله، كما أن من أقر لملك بالملك، ولم يجحده ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك، لكن جعل معه شريكًا في بعض الأمور يقربه إليه- خير ممن جحد صفات الملك، وما يكون به ملكًا، وهذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول.

فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق، وبين العباد، يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظامًا له وإجلالاً؟

فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لا دواء له، ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبره به من أن ربه فوق السموات، فقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٦، ٣٧].

واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية. وقد ذكر لفظه في غير هذا الموضع، والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان، ولما كانت

---

(١) قال ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار» رواه مسلم (٩٣).

(٢) قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» -رواه مسلم (٩١)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٩)، وابن ماجة (٤١٧٣)، وأحمد (١/ ٤١٢)، من حديث ابن مسعود.

البدع المضلة جهلاً بصفات الله وتكذيبًا بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله عنادًا وجهلاً، كانت من أكبر الكبائر، وإن قصرت عن الكفر. ولما كانت أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب، كما قال بعض السلف: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يُتاب منها والبدعة لا يُتاب منها» . وقال إبليس: أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون، لأنهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا[١] .

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول، والعاصي ليس كذلك، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه.

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي به قامت السموات والأرض، وأرسل الله- سبحانه- رسله عليهم الصلاة والسلام، وأنزل كتبه ليقوم الناس به- كان من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه، وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له- وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه، وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة، فقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله- من أقبح الظلم وأشده، وكذلك قتله أبويه الذين كانا سبب وجوده، وكذلك قتله ذا رحمه.

---

(١) رواه أبو يعلى (١٣٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٦٤)، من طريق عثمان بن مطر ثنا عبد الغفور عن أبي نصيرة عن أبي جابر عن أبي بكر ﷺ ، وإسناده ضعيف، من أجل عثمان بن مطر، قال ابن كثير في «التفسير» (١/ ٤٠٨): هو وشيخه ضعيفان، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: ضعيف، وقال يحيى: ليس بشيء .

وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله للسعي في إبقائه ونصيحته.

ولهذا كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًّا أو قتله نبي[١]، ويليه من قتل إمامًا أو عالمًا يأمر الناس بالقسط، ويدعوهم إلى الله سبحانه[٢]، وينصحهم في دينهم، وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدًا الخلود في النار، وغضب الجبار، ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له، هذا موجب قتل المؤمن عمدًا ما لم يمنع منه مانع[٣].

ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعًا واختيارًا مانع من نفوذ ذلك الجزاء، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه؟ فيه قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه، رأوا أنه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا، وخرج منها بظلامته، فلابد أن يستوفي له في دار العدل.

قالوا: وما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه؟! وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه؟!

وهذا أصح القولين في المسألة: أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعي وغيرهم.

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث، فإن التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذي قد جناه قد أقيم على حده.

---

(١) رواه أحمد (١/٤٠٧)، والطبراني في «الكبير» (١٠/٢١١، ٢١٦) من حديث ابن مسعود وفي الباب من حديث ابن عباس وانظر "السلسلة الصحيحة" للعلامة الألباني (٢٨١)

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[سورة آل عمران: ٢١].

(٣) قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[سورة النساء: ٩٣].

قالوا: وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر، وهما أعظم إثمًا من القتل، فكيف تقصر عن محو أثر القتل؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه، وجعلهم من خيار عباده، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى التوبة، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ [الزمر: ٥٣].

فهذه في حق التائب، وهي تتناول الكفر وما دونه.

قالوا: وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة، هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه.

قالوا: وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول، فأقام الشارع وليه مقامه، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول، بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث.

والتحقيق في المسألة: أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا إلى الولي ندمًا على ما فعل، وخوفًا من الله، وتوبة نصوحًا، سقط حق الله بالتوبة وحق الولي بالاستيفاء، أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يبطل حق هذا، ولا تبطل توبة هذا.

وأما مسألة المال فقد اختلف فيها:

فقالت طائفة: إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برئ من عهدته في الآخرة، كما برئ منها في الدنيا.

وقالت طائفة: بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له، فإنه منعه من انتفاعه به طول حياته، ومات ولم ينتفع به، وهذا ظلم لم يستدركه هو، وإنما انتفع غيره باستداركه، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة، كانت المطالبة به للجميع، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث، وهذا قول

طائفة من أصحاب مالك وأحمد.

وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين، فقال: إن تمكن الموروث من أخذ ماله أوالمطالبة به فلم يأخذه حتى مات، صارت المطالبة به للوارث في الآخرة، كما هي كذلك في الدنيا، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه، بل حال بينه وبينه ظلمًا وعدوانًا، فالطلب له في الآخرة.

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال، فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر عليه أخذه منه صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل، وداره التي أحرقها غيره، وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره. ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه. يبقى أن يقال: فإذا كان المال عقارًا، أو أرضًا، أو أعيانًا قائمة باقية بعد الموت، فهي ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه في كل وقت، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله كما يستحق المطالبة بها في الدنيا.

وهذا سؤال قوي لا مخلص منه إلا بأن يقال: المطالبة بهما جميعًا، كما لو غصب مالاً مشتركًا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة لحقه منه، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم، ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض، والله أعلم.

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقالوا: معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه

بجميع أحكامه. وقد قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦]. وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]. وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار.

وقال النبي ﷺ: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**»[1]، أي: مع العشاء، كما جاء في لفظ آخر. وأصرح من هذا قوله: «**من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر**»[2] وقوله ﷺ: «**من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن**»[3] ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به، فيكون قدرهما سواء، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي العشاء والفجر جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب، وما أوتي أحد- بعد الإيمان- أفضل من الفهم عن الله، ورسوله ﷺ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة، وقاتل الناس جميعًا؟.

قيل: في وجوه متعددة:

أحدها: أن كلاً منهما عاص لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره، متعرض لعقوبته، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته، واستحقاق الخلود في نار جهنم، وأعد له عذابًا عظيمًا، وإنما التفاوت في دركات العذاب، فليس إثم من قتل نبيًّا،

---

(١) رواه مسلم (٦٥٦)، وأبو داود (٥٥٥)، والترمذي (٢٢١) وأحمد (١/ ٥٨، ٦٨)، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١١٦٤)، وأبو داود (٢٤٣٣) والترمذي (٧٥٩)، وابن ماجة (١٧١٦)، وأحمد (٣/ ٣٤٤)، والدارمي (١٧٥٤) وابن حبان (٣٦٣٤)، وابن خزيمة (٢١١٤)، والبيهقي (٤/ ٢٩٢)، من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٥٠١٣)، وأبو داود (١٤٦١)، والنسائي (٩٩٤)، وأحمد (٣/ ٩٣)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

- ورواه مسلم (٨١٢)، والترمذي (٢٨٩٩)، وابن ماجة (٣٧٨٧)، من حديث أبي هريرة.

أو إمامًا عـادلاً، أو عالمًا يأمر الناس بالقسط كإثم مـن قتل من لا يؤبه له من آحاد الناس.

الثاني: أنهما سواء في استحقاق إزهاق النفس.

الثالث: أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام، فإن من قتل نفسًا بغير استحقاق، بل لمجرد الفسـاد في الأرض، أو لأخذ ماله، فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله، فهو معاد للنوع الإنساني.

ومنهـا: أنه يسمى قاتلاً، أو فاسقًا، أو ظالمًا، أو عـاصيًا بقتله واحدًا، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعًا.

ومنهـا: أن الله سبـحانه جعل: «المؤمنين في توادهم وتراحـمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1] فإذا أتلف القاتل من هذا الجسد عضوًا فكأنما أتلف سـائر الجسد، وآلم جميع أعضائه، فمـن آذى مؤمنًا واحـدًا فكأنما آذى جمـيع المؤمنين، وفي أذى جمـيع المؤمنين أذى جميع الناس، فـإن الله يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم، فإيذاء الخـفير إيذاء المخفور، وقد قال ﷺ : «**لا تقتل نفس ظلمًا بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كـفل من دمها، لأنه أول من سن القتل**»[2] ولم يجئ هذا الوعـيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر، وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قـاتل، لأنه أول من سن الشرك، ولهـذا رأى النبي ﷺ عـمـرو بن لحي الخـزاعي يعـذب بأعظم العـذاب في النار، لأنه أول من غـيـر دين إبراهيم عليـه السلام.

وقال تعـالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**﴾ [البقرة:٤١]. أي فيقـتدي بكم من بعدكم، فيكون إثم كفره عليكم، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٠)، من حديث النعمان بن بشير.

(٢) رواه البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧)، والترمذي (٢٦٧٣)، وابن ماجة (٢٦١٦)، والنسائي (٣٩٩٦)، وأحمد (١/ ٣٨٣)، من حديث ابن مسعود.

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا، يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟**» فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾(١) [النساء:٩٣] . ثم قال: ما نسخت هذه الآية ولا بدلت، وأنى له التوبة؟ قال الترمذي: هذا حديث حسن .

وفيه أيضًا، عن نافع قال: «نظر عبد الله بن عمر يومًا إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمنون عند الله أعظم حرمة منك»(٢) . قال: هذا حديث حسن .

وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال: «أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيبًا فليفعل، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهراقه، فليفعل(٣) .

وفي صحيحه أيضًا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**»(٤) .

وذكر البخاري أيضًا عن ابن عمر قال: «من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٩)، والنسائي (٤٠١٦)، وأحمد (١/ ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٩٤، ٣٦٤)، والحميدي في «مسنده» (٤٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٠١). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

- رواه النسائي (٤٠٠٩)، وأحمد (٥/ ٣٦٧)، والروياني في «مسنده»، من حديث جندب.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٢) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٦٥٥).

(٣) رواه البخاري (٧١٥٢)، وأحمد (٣/ ٢٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٥٧٥٣) من حديث جندب ابن سفيان البجلي، وذلك له حكم الرفع، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ١٣٠): «وهذا ولو لم يرد مصرحًا برفعه لكان في حكم المرفوع لأنه لا يقال بالرأي». اهـ.

(٤) رواه البخاري (٦٨٦٢)، وأحمد (٢/ ٩٤) والطبراني في «الأوسط» (١٤٠١)، والبيهقي (٨/ ٢١)، وعبد بن حميد (٨٥٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) رواه البخاري في «كتاب الديات» باب «قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ**﴾ [النساء: ٩٣] » حديث رقم (٦٨٦٣).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[١].

وفيهما أيضًا عنه ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢].

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**»[٣].

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان في عهده وأمانه، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن؟! وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النار، والهرة تخدشها في وجهها وصدرها، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتى مات بغير جرم؟! وفي بعض السنن عنه ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق**»[٤].

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم- كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٤)، ومسلم (٦٤)، والنسائي (٤١٢٠)، والترمذي (١٩٨٣)، وابن ماجة (١/ ٣٨٥)، وأحمد (١/ ٣٨٥)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، والنسائي (٤١٤٢)، وابن ماجة (٣٩٤٢)، وأحمد (٤/ ٣٥٨)، من حديث جرير بن عبد الله. ورواه البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦)، وأبو داود (٤٦٨٦)، والنسائي (٤١٣٦)، وابن ماجة (٣٩٤٣)، وأحمد (٢/ ٨٥)، من حديث ابن عمر.

(٣) رواه البخاري (٣١٦٦)، وابن ماجة (٢٦٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ورواه أبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي (٤٧٦١)، وأحمد (٥/ ٣٦)، والدارمي (٢٥٠٤)، من حديث أبي بكرة بنحوه.

(٤) رواه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٢٩٨٦)، من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٥٣).

ورواه ابن ماجة (٢٦١٩) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٤٣) من حديث البراء بن عازب وصححه البوصيري في «الزوائد» (٣/ ١٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٥٤).

في كتابه، ورسوله ﷺ في سننه كما تقدم.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا.

وقد أكد الله سبحانه حرمته، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨، ٧٠].

فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢].

فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو ابن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا»[١] ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة.

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:٢٢].

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٧].

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

---

(١) رواه البخاري في «مناقب الأنصار» حديث رقم (٣٦٣٦).

ونظير هذا: أنه سبحانه ذم الإنسان، وأنه خلق هلوعًا لا يصبر على سراء ولا ضراء، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: ٢٩، ٣١].

فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه. اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات.

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، يلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويتبر ما علا تتبيرًا.

❑ ❑ ❑

فصل

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة، فنذكر في كل باب منها فصلاً يليق به.

فأما اللحظات: فهي رائدة الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد المهلكات.

وقال النبي ﷺ: **«لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الأخرى»**(١).

وفي المسند عنه ﷺ: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»** (٢) فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله، أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه هذا معنى الحديث.

وقال: **«غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم»**(٣).

وقال: **«إياكم والجلوس على الطرقات»**، قالوا: يا رسول الله، مجالسنا، ما لنا بد منها. قال: **«فإن كنتم لابد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه»** قالوا: وما حقه؟ قال: **«غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام»**(٤).

---

(١) رواه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٥/ ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٧)، والروياني في «مسنده» (٢٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٩٠)، من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٣٠) ورواه أحمد (١/ ١٥٩)، والدارمي (٢٧٠٩) وابن حبان (٥٥٧٠)، والضياء في «المختارة» (٤٨٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦٧٤)، من حديث علي ﷺ.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٧٣) عن ابن مسعود، وإسناده ضعيف من أجل عبد الرحمن ابن إسحاق الواسطي: ضعيف كما في «التقريب» (١/ ٣٣٦)، وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود مختلف في سماعه من أبيه.

-ورواه أحمد (٥/ ٢٦٤) والحاكم (٤/ ٣١٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٢)، من حديث حذيفة ﷺ، وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: إسحاق واهٍ، وعبد الرحمن الواسطي ضعفوه. وانظر «ميزان الاعتدال» (١/ ٣٤٦).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وابن حبان (٢٧١)، والبيهقي (٦/ ٢٨٨)، وإسناده منقطع.

(٤) رواه مسلم (٢١٢١)، وأبو داود (٢١٢١)، وأحمد (٣/ ٣٦).

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع وفي هذا قيل: «الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده» .

قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يُقلبهُ في أعين الغير موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات، والزفرات، والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب: أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك على بعضه.

قال الشاعر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا، أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كُلُّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، ومراده أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه، ولا تقدر على شيء منه، فإن قوله: «لا كله أنت قادر عليه» نفي لقدرته على الكل، الذي لا ينفى إلا بنفي القدرة عن كل واحد.

وكم ممن أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلاً، كما قيل:

يا ناظراً ما أقلعت لحظاته حتى تشحطَ بينهن قتيلاً

ولي من أبيات:

مَلَّ السلامة فاغتدتْ لحظاتُهُ وقْفاً على طلل يُظنُ جميلاً
ما زال يتبعُ إثرهُ لحظاتهِ حتى تشحط بينهن قتيلاً

ومن العجب: أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه، حتى يتبوأ مكانًا

من قلب الناظر، ولي من قصيدة:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا أنت القتيل بما ترمي، فلا تُصب
يا باعثَ الطَّرف يرتادُ الشفاءَ له احبس رسولك لا يأتيكَ بالعطبِ

وأعجب من ذلك: أن النظرة تجرح القلب جرحًا، فيتبعها جرحًا على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، ولي أيضًا في هذا المعنى:

مـا زلت تتـبعُ نظرة في نظرة في إثر كل مليـحـة ومليـح
وتظن ذاك دواء جرحك وهو التحـ ـقيـق تجريـح علـى تجريـح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا فالقلـب منـك ذبيح أي ذبيح

وقد قيل: إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات.

فصل

وأمـا الخطرات: فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات، والهمم، والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته، فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات.

ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منىً باطلة: ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[النور:٣٩] وأخس الناس همة، وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلى بها، وهي لعمر الله رءوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، كما قال الشاعر:

أماني من سعدي رواء على الظما سقتنا بها سعدي على ظمأ بردا
منى إن تكن حقًّا تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدا

وهي أضر شيء على الإنسان، وتتولد من العجز والكسل، وتولد التفريط

والحسرة والندم، والمتمني لما فاتـه مباشرة الحقيقة بجسمـه، حول صورتها في قلبه وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره.

وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مـثله مثل الجائع والظمآن، يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا يشرب.

والسكون إلى ذلك واسـتجلابه يدل على خـساسة النـفس ووضاعتـها، وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها، بأن ينفي عنهـا كل خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضى أن يُخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها.

ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول:

خطرات يستجلب بها منافع دنياه.

وخطرات يستدفع بها مضار دنياه.

وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته.

وخطرات يستدفع بها مضار آخرته.

فليحـصر العبـد خطراته، وأفكاره، وهمومـه في هذه الأقسام الأربعـة، فإذا انحصرت له فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات، لتزاحم متعلقاتها قـدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته، وأخر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران:

أحدهما: مهم لا يفوت.

والثاني: غير مهم، ولكنه يفوت.

ففي كل منهـما ما يدعو إلى تقديمـه، فهنا يقع التردد والحيـرة، فإن قدم المهم خشي فوات ما دونه، وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر.

فهـذا موضع استـعمال العقل والـفقه والمعرفـة، ومن هنا ارتفع من ارتفع،

وأنجح من أنجح، وخاب من خاب، وأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لا يفوت على المهم الذي يفوت، ولا تجد أحدًا يسلم من ذلك، ولكن مستقل ومستكثر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي عليها مدار الشرع والقدر وإليها مرجع الخلق والأمر، وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها.

فيفوت مصلحة، لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة، لدفع ما هو أعظم منها.

فخطرات العاقل وفكره لا يتجاوز ذلك، وبذلك جاءت الشرائع، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها: ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة وتعلقها، وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى، لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة.

قال بعض السلف: أنزل الله القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه، وصفاته، وحكمته، وإحسانه، وبره، وجوده، وقد حض سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها، وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته، وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها، فحيي القلب، ودارت

كلمته في مملكته، وبث أمراءه وجنده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه، فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبدًا.

قال الشافعي رضي الله عنه: «صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين: أحدهما قولهم: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك.

وذكر الكلمة الأخرى: ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل».

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا في حياته، وإن عاش فيه عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة، والشهوة، والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته.

وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر، فإما وساوس شيطانية، وإما أماني باطلة وخدع كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين، ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق:

إن كان منزلي في الحشر عندكم ... ما قد لقيتُ، فقد ضيعتُ أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمار على الطريق، فإن لم تستدعه وتركته مر وانصرف عنك، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره، وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفسين: نفسًا أمارة، ونفسًا مطمئنة، وهما

متعاديتان، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله. وإجابة داعي الهوى.

وليس عليها شيء أضر منه، والملك مع هذه عن يمنة القلب، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب، والحرب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن تستوفي أجلها من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة، والحرب دول وسجال، والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله حكمًا لا يبدل أبدًا أن العاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين، فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تنقش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له؟ فأي حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هده النقوش؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية، لم تستقر فيه الخواطر النافعة، فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبًا فارغًا فتمكنا

هذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر، وأن لا يمكنوا خاطرًا يدخل قلوبهم، حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها، وهؤلاء حفظوا شيئًا وغابت عنهم أشياء، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر، فبقيت فارغة لا شيء فيها، فصادفها الشيطان خالية، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها، وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى، وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليًا، فشغله بما يناسب حال صاحبه، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا

بأن تكون هي المستولية على قلبه، وهي إرادة مراد الله الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه، وشغل القلب والاهتمام بمعرفته على التفصيل به، والقيام به وتنفيذه في الخلق، والتطرق إلى ذلك والتوصل إليه بالدخول في الخلق لتنفيذه، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها.

وأوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ، وهيهات هيهات، إنما الكمال في امتلاء القلب والسر من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكر وإرادات لذلك، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكر وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان.

ولهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الرب تعالى فربما استعملها في صلاته، وكان يجهز جيشه وهو في الصلاة فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة، وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة.

وهذا باب عزيز شريف، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب، متضلع من العلم عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فصل

وأما اللفظات: فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بها كلمة هي أربح منها؟ فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها»[1]، فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه»، أي: كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقة ذلك، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»[2]. وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفرج**»[3]، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «**كف عليك هذا**». فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم- أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم**»[4]، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومن العجب: أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم

---

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ٦٣).

(٢) رواه أحمد «٣/ ١٩٨»، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٨٧)، وفي سنده **علي بن مسعدة**، قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٤٠٥): صدوق له أوهام.

(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجة (٤٢٤٦)، وأحمد (٢/ ٣٩١، ٣٩٢، ٤٤٢)، وابن حبان (٤٧٦)، والبخاري في «الأدب» (٢٩٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٦٢٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجة (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، وقال الترمذي: **هذا حديث حسن صحيح**، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١١٠).

بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالاً ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليَّ أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبط عملك**» [(١)]، فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» [(٢)].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم**» [(٣)]، وعند مسلم: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**» [(٤)].

وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١)، وأبو يعلى (١٥٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٨٧)، من حديث جندب رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٢٣)، وقال العلامة أحمد شاكر في «تحقيق المسند»: إسناده صحيح.

(٣) رواه البخاري (٦٤٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٣٤)، من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)، والترمذي (٢٣١٤)، وأحمد (٢/ ٣٧٩)، والبيهقي (٨/ ١٦٤)، من حديث أبي هريرة.

بلغت، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه»[1] وكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث!.

وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس قال: «توفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريك؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه**»، قال: حديث حسن[2].

وفي لفظ: «إن غلامًا استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئًا لك يا بني، لك الجنة، فقال النبي ﷺ: «**وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره**»[3].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[4].

وفي لفظ لمسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت**»[5].

وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: «**من حسن إسلام المرء تركه**

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجة (٣٩٦٩)، وأحمد (١/ ٤٥)، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٨٨٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٦)، من حديث أنس، وإسناده منقطع لأن الأعمش الراوي عن أنس لا يصح سماعه منه كما في «تهذيب التهذيب» (٤/ ١٩٥)، وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (١٠/ ٢٢٨): لا يصح له سماع من أنس، وكان مدلسًا عن «الضعفاء». اهـ.

(٣) رواه أبو يعلى (٤٠١٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٨٣٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٠٣): رواه أبو يعلى، وفي سنده يحيى بن يعلى الأسلمي، وهو ضعيف. اهـ، وقال ابن عبد البر في «التمهيد»: «هذا حديث ليس بالقوي، لأن الأعمش لا يصح له سماع من أنس، وكان مدلسًا عن الضعفاء». اهـ.

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧)، وأبو داود (٥١٥٤)، والترمذي (٢٥٠٠)، وأحمد (٢/ ٤٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم (١٤٦٨) (٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما لا يعنيه»[١] .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: «قلت يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**»، قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «**هذا**» ، والحديث صحيح[٢] .

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له: إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذكرًا لله عز وجل**» ، قال الترمذي: حديث حسن[٣] .

وفي حديث آخر: «**إذا أصبح العبد، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[٤] .

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد، ولقد رئي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسئل عن حاله فقال: أنا موقوف على كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي. وقال بعض الصحابة لجاريته يومًا: هاتي السفرة نعبث بها، ثم قال: أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وألزمها إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام. أو كما قال.

وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد. واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ على قولين

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجة (٣٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني - رحمه الله- في «صحيح الترمذي» (١٨٨٦).

(٢) رواه مسلم (٣٨)، والترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجة (٣٩٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٨٩)، وأحمد (٣/ ٤١٣-٤/ ٣٨٤) والدارمي (٢٧١٠)، وابن حبان (٩٤٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٤١٢)، وابن ماجة (٣٩٧٤)، ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٢٨٣).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وأحمد (٣/ ٩٦)، وأبو يعلى (١١٨٥)، والطيالسي (٢٢٠٩)، وعبد ابن حميد (٩٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٩)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه . وإسناده حسن.

أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: كل كـلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كـان من الله. وما والاه. وكان الصديق ﷺ يمسك بلسانه ويقول: «هذا أوردني الموارد»[١] ، والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صـرت أنت أسيره، والله عند لسان كل قائل: ﴿مَـا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وفي اللسان آفتان عظيمـتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالـساكت عن الحق شـيطان أخرس، عـاص لله، مراء مـداهن إذا لم يخف على نفسه.

والمتكلم بالباطـل شيطان ناطق، عاص لله، وأكـثر الخلق منحرف في كـلامه وسكوته. فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسـط وهم أهل الصراط المستقـيم كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تـذهب عليه ضائعة بـلا منفعة فضـلاً أن تضره في آخرته وإن العـبد ليأتي يوم القيامة بحـسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قـد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.

فصل

وأما الخطوات، فحـفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيمـا يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله، فتقع خطاه قربة.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجـل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخـرى في قوله تعـالى: ﴿وَعِبَـادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان:٦٣]، فوصفهم بالاسـتقامة في لفظاتهم

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٠٩).

وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

فصل

وهذا كله ذكرناه في مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أكثر ما يدخل الناس النار: الفم والفرج**»(١).

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٢)، وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان، ونظير حديث ابن مسعود.

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، والذي يليه فالزنا أكثر وقوعًا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعًا من الردة، وأيضًا فإنه انتقال من الأكثر إلى ما هو أكثر منه، ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها، وزوجها، وأقاربها، ونكست رءوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيًّا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنا الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة، فكم في الزنا من استحلال حرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!.

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والترمذي (١٤٠٢)، والنسائي (٤٠٢٧)، وابن ماجة (٢٥٣٤)، من حديث عبد الله بن مسعود.

ويورث المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم، والحزن، والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان. فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها، وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت، كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت.

وقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[1]. متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: «**إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه**»[2].

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه**»[3].

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: «**يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ثم رفع يديه، وقال: اللهم هل بلغت؟**»[4].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١)، والترمذي (١١٦٨)، وأحمد (٢/ ٥٣٦)، والبيهقي في «الشعب» (١١٦٨)، من حديث أبي هريرة..

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: «لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»[١] .

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه ويشتد غضبه، فلابد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: «ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها»[٢] ، ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنه يغمز امرأة فقال: مهلاً يا بني، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقيل له: «هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خيرًا أبدًا» .

وخص سبحانه حد الزنا من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد، وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم: فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا- وإن كان عامًّا في سائر الحدود- ولكن ذكر في حد الزنا خاصة، لشدة الحاجة إلى ذكره، وإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني

---

(١) رواه البخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٠٧/١٥)، موقوفًا ورواه بعضهم مرفوعًا به، قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٦١٣): رواه أبو يعلى بإسناد جيد.

ما يجـدونه على السارق والقـاذف وشارب الخمـر، فقلوبهم ترحم الزاني أكـثر مما ترحم غيـره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك فنهوا أن تأخـذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأرذال، وفي النفوس أقوى الدواعي إليـه، والمشارك فيه كثـير، وأكثر أسبـابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يسـتنكر هذا الأمر، فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشبـاه الأنعام، ولقد حكي لنا من ذلـك شيئًا كـثيرًا نقـاص العقول، كـالخدام والنساء.

وأيضًا فإن هذا ذنب غـالبًا ما يقع مع التراضي من الجـانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه.

وفي النفوس شهوة غالبة له فيصور ذلك لهـا فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضـعف الإيمان، وكمـال الإيمان أن تقوم به قـوة يقيم بها أمـر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربه تعالى في أمره ورحمته.

الثالث: أنه- سبحانه- أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهمـا أحد، وذلك أبلغ في مصلحـة الحد وحكمة الزجـر، وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله- تـعالى- لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتـراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كل منهـما فساد ينـاقض حكمة الله في خلقه وأمـره، فإن في اللواط من المفاسـد ما يفوت الحـصر والتعـداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى، فإنه يـفسد فسادًا لا يرجى له صلاح أبدًا، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجـهه، فلا يستحي بعد ذلك من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

وقد اخـتلف الناس: هل يدخل الجنة مفـعول به؟ على قـولين سمـعت شيخ الإسلام يحكيهما.

والذين قالوا: لا يدخل الجنة احتجوا بأمور:

منها: أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة ولد زنية**»[١]، فإذا كان هذا حال ولد الزنا مع أنه لا ذنب له في ذلك، ولكنه مظنة كل شر وخبث، وهو جدير أن لا يجيء منه خيرٌ أبدًا، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام النار أولى به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام؟

قالوا: والمفعول به شر من ولد الزنا، وأخزى وأقبح وأوقح، وهو جدير أن لا يوفق لخير، وأن يحال بينه وبينه، وكلما عمل خيرًا قيض الله له ما يفسده عقوبة له، وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان، ولا يوفق لعلم نافع، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح.

والتحقيق في المسألة أن يقال: إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب، ورزق توبة نصوحًا وعملاً صالحًا، وكان في كبره خيرًا منه في صغره، وبدل سيئاته بحسنات، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات، وصدق الله في معاملته فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنة، فإن الله يغفر الذنوب جميعًا، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك، فلا تقصر عن محو هذا الذنب، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلاً وفضلاً أن «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٢]، وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك، وقتل النفس، والزنا، أنه

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٠٣)، والدارمي (٢٠٩٣)، وابن حبان (٣٣٨٣)، والطيالسي (٢٢٩٥)، والنسائي في «الكبرى» (٤٩١٤)، والبيهقي (١٠/٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو، وفي سنده «جابان»، قال الذهبي في «الميزان» (٢/١٠٠): مجهول. ورواه النسائي في «الكبرى» (٤٩٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٣٠٧)، وأعله الدارقطني بأن مجاهدًا لم يسمعه من أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجة (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٥٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨)، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه وإسناده منقطع، فهو لم يسمع من أبيه.

ورواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/٣٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٩٨)، من طريق يحيى بن أبي خالد عن ابن أبي سعيد عن أبيه مرفوعًا به، وقال الذهبي في «لسان الميزان» (٦/٢٥٢): حديث ضعيف رواه مجهول عن مجهول. اهـ. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/١٣٢) والذهبي في=

يبدل سيئاته حسنات، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة.

وأما المفعول به إن كان في كبره شرًّا مما كان في صغره، لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدرك ما فات وأحيا ما أمات، ولا بدل السيئات بالحسنات، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة، عقوبة له على عمله، فإن الله سبحانه يعاقب على السيئة بسيئة أخرى، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يُحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رحمه الله: واعلم أن لسوء الخاتمة- أعاذنا الله منها- أسبابًا، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض من الآخرة، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد.

قال: ويُروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول: قل: لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي، فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته

«الميزان» (٧/ ٤٥١): يحيى بن أبي خالد وابن أبي سعيد مجهولان. وللحديث شاهد عن ابن عباس في «شعب الإيمان» للبيهقي (٧١٧٨) بزيادة: **«والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه»**. والحديث حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٠٥) لشواهده.

غشية، فلما أفاق قـال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل، ثم مـات. قال عبد الحق: وقيل لآخـر- ممن أعرفه: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقـول: الدار الفلانية أصلحوا فيهـا كذا، والبستان الفلاني افـعلوا فيه كذا.

قـــال: وفيـما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحـدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فجـعل يقول بالفارسية: ده يازده ده وازده، تفسيره: عشرة بأحد عشر.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول:

أين الطريق إلى حمام منجاب؟

قال: وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كـان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبـه باب الحمـام، فمرت به جـارية لها منظر، فـقالت: أين الطريق إلى حـمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفـرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا مـا يطيب به عيشنا، وتقر به عـيوننا، فقال لهـا: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشـتهين، وخرج وتركهـا في الدار، ولم يغلقها، فـأخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول:

يا رب قـائلة يومًـا، وقـد تَعِـبتْ كـيـف الطريق إلى حـمـام منجـابِ؟

فبينما هو يومًا يقول ذلك، إذا بجارية أجابته من طاق:

هَلاّ جعلت سريعًا إذ ظفرت بها حرزًا على الدار أو قُفلاً على الباب؟

فازداد هيمـانه واشتد هيجانه، ولم يزل على ذلك، حتى كـان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفًا

من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة[١].

وهذا من أعظم الفقه، أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق، ويقرأ: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة- أعاذنا الله تعالى منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في الأصل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة، وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك، فقالت: لماذا؟ قال: قد سبيت لبي، وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه، فمات، فلم يظفر

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ١٥٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٨) بلفظ: «إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت».

بها، وفاته دينه.

قال: ويروى أن رجلاً علق شخصًا فاشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه، حتى وقع ألم به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعود، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له، فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وفرح بي، ولا أدخل مدخل الريبة، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، فعاودته فأبى وانصرف، فلما سمع البائس أسقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

يا سلم يا راحة العليل ... ويا شفا المدنف النحيل

رضاك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

فقلت له: يا فلان اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة.

فصل

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات.

وقد اختلف الناس: هل هو أغلظ عقوبة من الزنا، أو الزنا أغلظ عقوبة منه، أو عقوبتهما سواء؟ على ثلاثة أقوال:

فذهب أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن عباس، وجابر بن زيد، وعبد الله بن معمر، والزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك، وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد- في أصح الروايتين عنه- والشافعي في أحد قوليه- إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا، وعقوبته القتل على كل حال، محصنًا كان أو غير محصن.

وذهب عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والأوزاعي، والشافعي في ظاهر مذهبه-، والإمام أحمد- في الرواية الثانية عنه-، وأبو يوسف، ومحمد، إلى أن عقوبته وعقوبة الزنا سواء.

وذهب الحاكم، وأبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزاني، وهي التعزير.

قالوا: لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله فيها حدًّا مقدرًا، فكان فيها التعزير، كأكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير.

قالوا: ولأنه وطء في محل لا تشتهيه الطباع، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم، فلم يكن فيه حد كوطء الحمار وغيره.

قالوا: ولأنه لا يسمى زانيًا لغة، ولا شرعًا، ولا عرفًا، فلا يدخل في النصوص الدالة على حد الزانيين.

قالوا: وقد رأينا في قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع منها طبيعيًّا اكتفي بذلك الوازع من الحد، وإذا كان في الطباع تقاضيها جُعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطباع لها، ولهذا جُعل الحد في الزنا، والسرقة، وشرب المسكر دون أكل الميتة، والدم ولحم الخنزير.

قالوا: وطرد هذا: أنه لا حد في وطء البهيمة ولا الميتة، وقد جبل الله- سبحانه- الطباع على النفرة من وطء الرجل رجلاً مثله أشد نفرة، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه، بخلاف الزنا، فإن الداعي فيه من الجانبين.

قالوا: ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد، كما لو تساحقت المرأتان، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى.

قال أصحاب القول الأول- وهو جمهور الأمة- وحكاه غير واحد إجماعًا للصحابة: ليس في المعاصي أعظم مفسدة من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل، كما سنبينه إن شاء الله.

قالوا: ولم يبتل الله سبحانه بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدًا من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات، بين

الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالاً لم ينكله أمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عُملت عليها، وتهرب الملائكة من أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن أماكنها، وقتل المفعول به خير له من وطئه، فإنه إذا وطئه قتله قتلاً لا ترجى الحياة معه، بخلاف قتله، فإنه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به في آخرته.

قالوا: والدليل على هذا: أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي، إن شاء قتل وإن شاء عفا، وحتم قتل اللوطي حداً، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها، بل عليها عمل أصحابه، وخلفائه الراشدين.

وقد ثبت عن خالد بن الوليد: «أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً، ينكح كما تنكح المرأة، فكتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستشار أبو بكر الصحابة رضي الله عنهم فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولاً فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها، أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه»[1].

وقال عبد الله بن عباس: «ينظر أعلى بناء في القرية، فيرمى اللوطي منها منكسًا، ثم يتبع بالحجارة»[2].

وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة الله للوطية، وابن عباس هو الذي روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا**

---

(١) عزاه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٣٤٢) إلى البيهقي في «الشعب» من طريق ابن أبي الدنيا، وذكره القرطبي في «التفسير» (٧/ ٢٤٤)، وابن قدامة في «المغني» (٩/ ٥٨)، وقال «صاحب سبل السلام» (٤/ ١٤): وفي سنده إرسال. اهـ.

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٣٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٤٩٦).

الفاعل والمفعول به»(١) .

رواه أهل السنن، وصححه ابن حبان وغيره، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث، وإسناده على شرط البخاري.

قالوا: وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله من عَمِلَ عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط**»(٢) ، ولم يجئ عنه ﷺ لعنه الزاني ثلاث مرات في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية، وأكده ثلاث مرات. وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع، لا مسألة نزاع.

قالوا: ومن تأمل قوله- سبحانه وتعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء:٣٢].

وقوله في اللواط: ﴿**أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:٨٠].

تبين له تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا، أي: هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، أي: أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، وهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ**﴾ [الشعراء:١٩] أي: الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ثم أكد سبحانه ششأن

(١)رواه الترمذي (١٤٥٦) وأبو داود (٤٤٦٢)، وابن ماجة (٢٥٦١)،وأحمد ، والبيهقي (٨/ ٢٣٢) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٦٥)، والإرواء (٨/ ٢٤٠٨) .

(٢)رواه أحمد (١/ ٣٠٩، ٣١٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٣٣٧)، وابن حبان (٤٤١٧)، وأبو يعلى (٢٥٣٩)، وعبد بن حميد (٥٨٩)، والبيهقي (٨/ ٢٣١)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢١٨)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١١٦)، من حديث ابن عباس، وإسناده صحيح.

فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت:٢٨] ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبوا عنه الأسماع وتنفر منه الطباع أشد النفرة وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾[الأعراف:٨١] ، ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى، من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسي المرأة لها أبويها وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته[1] ، إلى غير ذلك من مصالح النكاح، والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله، وتربى عليه بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله.

ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوا هم، ونكسوا في العذاب على رءوسهم.

ثم أكد- سبحانه- قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف:٨١] فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنا؟.

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾[الأنبياء:٧٤] .

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٦)، والبيهقي (٧/ ٨١)، من حديث معقل بن يسار، ورواه أحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥)، عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾[الأنبياء:٧٤] ، وسماهم مفسدين في قول نبيهم: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت:٣٠] ، وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[العنكبوت:٣١] فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات، ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم، قيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[هود:٧٦] .

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطًا لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف، هم من أحسن البشر صورًا، فأقبل اللوطية إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[هود:٧٨] ، ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفًا على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾[هود:٧٨] ، فردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[هود:٧٩] ، فنفث نبي الله نفثة مصدور، خرجت من قلب مكروب، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:٨٠] ، فنفس له رسل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ليسوا ممن يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم، وهون عليك، فقالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[هود:٨١] ، وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود:٨١] ،فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود:٨١] ، فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل، إلى عبده ورسوله جبرائيل،

بأن يقلبها عليهم كما أخبر به محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود:٨٢]، فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفًا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٧٥، ٧٧]، أخذهم على غرة، وهم نائمون، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقلبت تلك اللذات آلامًا، فأصبحوا بها يعذبون.

مآرب كانت في الحياة لأهلها   عذابًا فصارت في الممات عذابًا

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، تمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعًا وخيمًا، فأعقبهم عذابًا أليمًا، أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوا بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يُسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون.

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦].

وقد قرب الله مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفًا لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

فيا ناكحي الذكران يَهنيكُم البشرى   فيوم معاد الناس إن لكم أجرًا
كلوا واشربوا وازنوا ولُوطُوا وأبشروا   فإن لكم زفرًا إلى الجنة الحمرا
فإخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم   وقالوا إلينا عَجِّلوا لكم البشرى
وها نحن أسلاف لكم في انتظاركم   سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى

فلا تحسبوا أن الذين نكحتمو ... يغيبون عنكم بل ترونهم جهرا
ويلعن كل منكما لخليله ... ويشقى به المحزون في الكرة الأخرى
يعذب كل منهما بشريكه ... كما اشتركا في لذة توجب الوزرا

فصل

في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا.

أما قولهم: إنها معصية لم يجعل الله فيها حدًا معينًا، فجوابه من وجوه:

أحدها: أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتمًا، وما شرعه رسول الله ﷺ فإنما شرعه عن الله، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة.

والثاني: أن هذا ينقض عليكم بالرجم، فإنه إنما ثبت بالسنة.

فإن قلتم: بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه.

قلنا: فينقض عليكم بحد شارب الخمر.

والثالث: أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتف؟

وأما قولكم: إنه وطء في محل لا تشتهيه الطباع، بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة، فجوابه من وجوه:

أحدها: أنه قياس فاسد الاعتبار، مردود بسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة، كما تقدم بيانه.

والثاني: أن قياس وطء الأمرد الجميل الذي فتنته تربو على كل فتنة، على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة، أو سبى ذلك عقل عاشق، أو أسر قلبه، أو استولى على فكره ونفسه؟ وليس في القياس أفسد من هذا.

الثالث: أن هذا منتقض بوطء الأم، والبنت، والأخت، فإن النفرة الطبيعية

عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود- في أحد القولين- وهو القتل بكل حال محصنًا كان أو غير محصن، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهو قول إسحاق بن راهويه، وجماعة من أهل الحديث.

وقد روى أبو داود والترمذي من حديث البراء بن عازب، قال: «لقيت عمي ومعه الراية، فقلت: إلى أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله»، قال الترمذي: هذا حديث حسن [(١)] قال الجوزجاني: عم البراء اسمه الحارث بن عمرو.

وفي سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من وقع على ذات محرم فاقتلوه»**[(٢)] .

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها، فقال: احبسوه وسلوا من ههنا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوا عبد الله بن مطرف، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف»**[(٣)] .

وفيه دليل على القتل بالتوسيط، وهذا دليل مستقل في المسألة، وهو أن من لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل، دليله: من وقع على أمه أو ابنته، وكذلك يقال في وطء ذوات المحارم، ووطء من لا يباح له وطؤه بحال، وكان حده القتل كاللوطي.

---

(١) رواه أبو داود (٤٤٥٧)، والترمذي (١٣٦٢)، والنسائي (٣٣٣٢)، وابن ماجة (٢٦٠٧)، وأحمد (٤/ ٢٩٠، ٢٩٥)، والدارمي (٢٢٣٩)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) رواه الترمذي (١٤٦٢)، وابن ماجة (٢٥٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠٠)، والحاكم (٤/ ٣٥٦)، والبيهقي (٨/ ٢٣٤)، والدارقطني (٣/ ١٢٦)، من حديث ابن عباس، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٧٨).

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» (٥٤٧٣)، من طريق رفدة بن قضاعة ثنا صالح بن راشد به، وكلاهما ضعيف، رفدة بن قضاعة الغساني، قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٢١٠): ضعيف وصالح بن راشد، قال عنه الذهبي في «لسان الميزان» (٣/ ١٦٨): شامي لا يعرف وحديثه منكر. اهـ. وذكره العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٠١)، والحديث ضعفه ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ١١٨)، والألباني في «ضعيف الجامع» (٥٥١٥)، والضعيفة (٤٥٧٢).

والتحقيق: أن يستدل على المسألتين بالنص، والقياس يشهد لصحة كل منهما، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرمه فعله الحد، وإنما اختلفوا في صفة الحد، هل هو القتل بكل حال، أو حده حد الزاني؟ على قولين:

فذهب الشافعي ومالك وأحمد- في إحدى روايتيه- أن حده حد الزاني.

وذهب أحمد، وإسحاق، وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال. وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالمًا بالتحريم أنه يحد، إلا أبا حنيفة وحده فإنه رأى في ذلك شبهة مسقطة للحد.

ومنازعوه يقولون: إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظًا وشدة، فإنه ارتكب محذورين عظيمين: محذور العقد، ومحذور الوطء، فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد إلى محذور الزنا؟

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

أحدهما: يجب به الحد، وهو قول الأوزاعي، فإن فعله أعظم جرمًا وأكبر ذنبًا، وانضم إلى فاحشة هتك حرمة الميت.

فصل

وأما واطئ البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يؤدب، ولا حد عليه، وهذا قول مالك، وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه، وهو قول إسحاق.

والقول الثاني: حكمه حكم الزاني، يجلد إن كان بكرًا، ويرجم إن كان محصنًا، وهذا قول الحسن.

والقول الثالث: أن حكمه حكم اللوطي، نص عليه أحمد، فيخرج على الروايتين في حده، هل هو القتل حتمًا أو هو كالزاني؟.

والذين قالوا: حده القتل، احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن

النبي ﷺ: «**من أتى بهيمة فاقتلوه، واقتلوها معه**»[1].

قالوا: ولأنه وطء لا يباح بحال، فكان فيه القتل كحد اللوطي.

ومن لم ير عليه حدًّا قالوا: لم يصح فيه الحديث، ولو صح لقلنا به، ولم يحل لنا مخالفته.

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة، فوقف عندها، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك.

وقال الطحاوي: الحديث ضعيف، وأيضًا فراوية ابن عباس، وقد أفتى به لا حد عليه، قال أبو داود: وهذا يضعف الحديث.

ولا ريب أن الزاجر الطبعي عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط، وليس الأمر أنهما في طباع الناس سواء، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم.

فصل

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على تدالك المرأتين، فمن أفسد القياس، إذ لا إيلاج هناك، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج، على أنه قد جاء في بعض الآثار المرفوعة: «**إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان**»[2]، ولكن لا يجب الحد بذلك، لعدم الإيلاج، إن أطلق عليها اسم الزنا العام، كزنا العين واليد والرجل والفم.

إذا ثبت هذا: فأجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع

---

(١) رواه أبو داود (٤٤٦٤)، والترمذي (١٤٥٥)، وأحمد (١/ ٢٦٩)، والحاكم (٤/ ٣٥٥)، والدارقطني (٣/ ١٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨١٤).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٣٣) وفي سنده محمد بن عبد الرحمن، كذبه أبو حاتم وقال البيهقي: «لا أعرفه، وهو منكر بهذا الإسناد». اهـ.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٠٢)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» عن شيخه علي بن سعيد الرازي، وفيه لين، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

غيره، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز، واحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿**إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾ [المعارج: ٣٠] وقاس ذلك على أمته المملوكة- فهو كافر، يستتاب كما يستتاب المرتد، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم.

فصل

فإن قيل: وهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال؟ ورقية لهذا السحر القتال؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق؟ وهل يمكن السكران من خمر الهوى أن يفيق؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويدائه؟ إن لامه لائم التذ بملامه ذكرًا لمحبوبه، وإن عذله عاذل أغراه عذله، وسار به في طريق مطلوبه، ينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهدًا ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيذة حبًّا لذكرك فليلمني اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طلب له الدواء.

قيل: نعم، الجواب من رأس «**ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله**» (١).

والكلام في دواء داء تعلق القلب بالمحبة الهوائية من طريقين:

أحدهما: حسم مادته قبل حصولها.

والثاني: قلعها بعد نزوله، وكلاهما يسير على من يسره الله عليه، ومتعذر

(١) سبق تخريجه.

على من لم يعنه الله، فإن أزمة الأمور بيديه.

فأما الطريق المانع من حصول هذا الدواء، فأمران:

أحدهما: غض البصر كما تقدم، فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته، وفي غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى، وما سعد من سعد في الدينا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم- الذي لعل فيه هلاكه- إلى قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية عليه، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته، ويبعده عن الله، وليس على القلب شيء أضر من إطلاق البصر، فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر، قال: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النور: ٣٠].

ثم قال إثر ذلك: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ**﴾ [النور: ٣٥]، أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات عليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدع وضلالة، واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا نفذ ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلمات.

الســادســة: أنه يورث فراسة صـادقة يميز بها بين الحق والـباطل، والصادق والكاذب، وكان شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال- لم تخطئ له فراسة. وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحـانه يجزي العبد على عـمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا مـنه، فإذا غض بصره عن محارم الله، عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبس بصـره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان، والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبـة التي إنما تنال ببصيرة القلب، وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة فقال تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[الحجر:٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمه الذي هو فساد البصيرة، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسكر القلب، كما قال القائل:

سكران سكر هوى، وسكر مدامـــة ومـتى إفاقـة من به سكران؟

وقال آخر:

قـالوا جننت بمن تهـوى فـقلت لهم العـشـق أعظـم مما بالمجـانين
العـشق لا يسـتفيق الدهر صـاحبــه وإنمـا يصـرع المجنون في الحين

السابعة: أنه يورث القلب ثباتًا، وشجاعة، وقوة، فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجـة، وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثـر «الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله».

وضد هذا تجـد في المتبع لهـواه - من ذل النفس، ووضاعـتها، ومـهانتـها، وخستها، وحقارتها- ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه.

كما قـال الحسن: «إنهم وإن طقطقت بهم البغـال وهملجت بهم البراذين، إن ذل العصية في رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعتـه، والذل قرين معصيته، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]

والإيمان قول وعمل، وظاهر وباطن، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠] أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله. وذكره من الكلم الطيب، والعمل الصالح.

وفي دعاء القنوت: «**إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت**» (١).

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز، بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهيب.

فمن ذلك اللهيب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة: أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالى لنبيه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته (٢).

التاسعة: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أمره، ويقع في اتباع هواه، وفي الغفلة عن ذكر ربه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ

(١) رواه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٤)، وابن ماجة (١١٧٨)، وأحمد (١٩٩/١)، وابن خزيمة (١٠٩٥)، والدارمي (١٥٩٣)، من حديث الحسن بن علي ﷺ وحسنه الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) رواه البخاري (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٧٥) من حديث سمرة بن جندب.

أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات، والقاذورات، والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والأنس به، والسرور بقربة فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر نطلعك على ما وراءها.

الطريق الثاني المانع من حصول تعلق القلب: اشتغال القلب بما يبعده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إما خوف مقلق، أو حب مزعج، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب- لم يجد بدًا من عشق الصور.

وشرح هذا: أن النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما، ويحتمل أدنى المكروهين، ليخلص من أعلاهما، وهذا خاصة العقل، ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالاً منه.

الثاني: قوة عزم، وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك، فكثيرًا ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبى له ضعف نفسه، وهمته، وعزيمته على أشياء لا تنفع من خسته، وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه،

ولا ينتفع به غيره، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين، فقال تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون منهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤]، وهذا هو الذي ينتفع بعلمه، وينتفع به الناس، وضده لا ينتفع بعلمه، ولا ينتفع به غيره، ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره، فالأول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره، والثاني قد طفئ نوره، فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته، والثالث يمشي في نوره وحده.

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى، وعشق الصور أبدًا، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه. فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة، وعذاب على صاحبها- صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة إلى محبته، أو قاطعًا له عما يضاد محبته وينقصها، والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه، ويعده كاذبًا في دعوى محبته، مع أنه ليس أهلاً لصرف كل قوة المحبة إليه- فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم، ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده، فليختر العبد إحدى المحبتين، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصلبان، أو المردان، أو محبة النيران، أو

محبة النسوان، أو محبة الإماء، أو محبة العشراء والإخوان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان؛ فالإنسان عبد محبوبه كائنًا من كان، كما قيل:

أنت القتيل بكل من أحببتــه فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه، كان إلهه هواه، قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:٢٣].

فصل

وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع، والذل للمحبوب، فمن أحب محبوبًا وخضع له فقد تعبد قلبه له، بل التعبد أحد مراتب الحب، ويقال له: التتيم أيضًا، فإن أول مراتبه العلاقة، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب، قال الشاعر:

وعلقت ليلى وهـي ذات تمائـم ولم يبـد للأتراب من ثديها حجم

وقال الآخر:

أعلاقـة أم الوليـد بعـد مـا أفنان رأسك كـالثـغـام المخلس

ثم بعدها الصبابة، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب، قال الشاعر:

تشكي المحبون الصبابـة ليتنـي تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلهـا فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزومًا لا ينفك عنه، ومنه سمي الغريم غريمًا، لملازمته صاحبه، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ [الفرقان:٦٥] وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب، وقل أن تجده في أشعار العرب.

ثم العشق وهو إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الرب سبحانه، ولا يطلق في حقه. ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر، وقد جاء إطلاقه

في حق الرب تعالى كما في مسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر: أنه صلى صلاة فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال: أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو بهن: «**اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذ كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[1] .

وفي أثر آخر: «طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا»[2] .

وهذا هو المعنى الذي عبر عنه ﷺ بقوله: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**»[3] .

وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ**﴾ [العنكبوت:٥].

لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه- ضرب لهم أجلاً وموعدًا للقائه، تسكن نفوسهم به.

وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، وهي

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (١٢٢٨)، وفي «الصغرى» (١٣٠٥)، وأحمد (٤/ ٢٦٤)، وأبو يعلى (١٦٢٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٧٨)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة».

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٠٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٩١)، عن أبي الدرداء دون إسناد، وذكره أيضاً القرطبي في «التفسير» (١١/ ٢٣٣).

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)، والترمذي (٢٣٠٩)، والنسائي(١٨٣٦)، وأحمد (٣/ ١٠٧)، والدارمي (٢٧٥٦)، من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

ورواه البخاري (٧٥٠٤)، والنسائي (١٨٣٤)، وأحمد (٢/ ٣١٣، ٤٢٠)، وابن حبان (٣٠٠٨)، من حديث أبي هريرة، وفي الباب من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[النحل:٩٧] ، ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين، والكفار، والأبرار، والفجار، من طيب المأكل، والملبس، والمشرب، والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكر محبوبه الأعلى، وحبه، والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه، وإرادته، وقصوده بل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن بصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه سكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث، كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله، كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته، ولابد له منه**»[١] .

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي، الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه، والمراد به- حصر أسباب محبته في أمرين: **أداء فرائضه**، والتقرب إليه بالنوافل، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبًا لله، فإذا صار محبوبًا لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢)، وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٣٤٦/٣)، من حديث أبي هريرة.

المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكًا لزمام قلبه مستوليًا على روحه استيلاء المحبوب على محبة الصادق في محبته، التي قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له.

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشي مشي به، فهو في قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه، فالباء ههنا للمصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية لا علمية محضة.

وإذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها، كما قال بعض المحبين:

خيالك في عيني، وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

وقال الآخر:

ومن عجب أني أحن إليهم ... فأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقُهم قلبي وهم بين أضلُعي

وهذا ألطف من قول الآخر:

إن قُلتُ غبتَ فقلبي لا يصدقني ... إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب ... فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى إلى المحب من محبوبه، وربما تمكنت منه المحبة، حتى يصير أدنى إليه من نفسه، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه، كما قال:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلي بكل سبيل

وقال آخر:

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر، واليد، والرجل بالذكر، فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة،

ويجلبان إليه الحب والبغض، فيستعمل اليد والرجل، فإذا كان سمع العبد بالله، وبصره بالله كان محفوظًا في آلات إدراكه، وكان محفوظًا في حبه وبغضه، فحفظ في بطشه ومشيه.

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع، والبصر، واليد، والرجل عن اللسان فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة، وكذلك حركة اليد والرجل التي لابد للعبد منهما فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصد واختيار؟ وقد يستغني العبد عنها إلا حيث أمر بها. وأيضًا فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح، فإنه ترجمانه ورسوله.

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه، وبصره، وبطشه، ومشيه بقوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**» تحقيقًا لكونه مع عبده، وكون عبده به في إدراكاته بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله.

وتأمل كيف قال: «**فبي يسمع، وبي يبصر**» ولم يقل: فلي يسمع ولي يبصر. وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع؛ إذ هي أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور لله، وذلك أخص من وقوعها به، وهذا من الوهم والغلط؛ إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة؛ فإن حركات الأبرار، والفجار، وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم، وإنما الباء ههنا للمصاحبة، أي إنما يسمع، ويبصر، ويبطش، ويمشي وأنا صاحبه ومعه، كقوله في الحديث الآخر: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[1].

وهذه هي المعية الخاصة في قوله تعالى: ﴿**لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠]

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٤٠)، وابن ماجة (٣٧٩٢)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٩٦)، والبيهقي في «الشعب» (٥٠٩)، وابن حبان (٨١٥)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٢١)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٥٦)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وصححه الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (١٢/ ٤٧٥).

وقول النبي: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[(١)] وقوله: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:٦٩] وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل:١٢٨] وقوله: ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال:٤٦] وقوله: ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الشعراء:٦٢] وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ [طه:٤٦].

فهـذه الباء مقـيدة لمعنى هذه المعيـة دون اللام، ولا يتأتى للعبـد الإخلاص، والصبر، والتوكل، ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية.

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق، وانقلبت عليه المخاوف في حقه أمانًا، فبالله يهون كل صعب، ويسهل كل عسـير ويقرب كل بعيد، وبالله تزول الهموم، والغموم، والأحزان، فلا هم مع الله، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء، فيصير قلبه حينئذٍ كالحوت، إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه.

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محـابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبـه؛ فقال: «**ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**» أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري، والتـقرب إلي بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فـيما يسألني أن أفعله به ويسـتعيذني أن يناله، وقوى أمـر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته، فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميته ولكن مصلحته في إماتتـه، فإنه ما أماته إلا ليحييه، ولا أمرضـه إلا ليصلحه، ولا أفقره إلا ليغنيـه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخـرجه من الجنة في صلب أبيه إلا ليـعيده إليها على أحسن أحواله، ولم يقل لأبيه: اخرج منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها، فهذا هو الحـبيب على الحقيقـة لا سواه؛ بل لو كان في كل منبت شعـرة من العبد محبة تامة لله، لكان بعض ما يستحقه على عبده:

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، والترمذي (٣٠٩٧)، وأحمد (١/٤)، وابن حبان (٦٢٧٨)، وأبو يعلى (٦٦)، وعبد بن حميد (٢)، من حديث أبي بكر ﷺ.

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

فصل

ثم التتيم، وهو آخر مراتب الحب، وهو تعبد المحب لمحبوبه، يقال: تيمه الحب، إذا عبده، ومنه: تيم الله، أي عبد الله، وحقيقة التعبد: الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم: طريق معبد، أي مذلل قد ذللته الأقدام؛ فالعبد هو الذي ذلَّله الحب والخضوع لمحبوبه، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية؛ فلا منزل له أشرف منها.

وقد ذكر الله أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه، وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي مقام الدعوة إليه، ومقام التحدي بالنبوة، ومقام الإسراء، فقال سبحانه: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**﴾ [الجن:١٩] وقال: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ [البقرة:٢٣] وقال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾ [الإسراء:١] وفي حديث الشفاعة: «**اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»(١) فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته، وكمال مغفرة الله له، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ**

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس. ورواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٨٦)، وأحمد (٢/ ٤٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٠، ١٣٣].

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك.

وأصل الشرك بالله الإشراك في المحبة كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به ندًّا يحبه كما يحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حبًّا لله، فإنهم وإن أحبوا الله، لكن لما شركوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك، والعدل برب العالمين، والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة، كما تقدم.

ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليًّا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٣]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة:٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٥١].

وقال في الإفراد: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية:١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده

المؤمنين فصاروا أولياءه في الله، بخلاف من اتخذ مخلوقًا وليًّا من دون الله.

فهذا لون وذاك لون. كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون، والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود: أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها؛ فإن محبة الرسول- بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء- لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»(١) .

وفي لفظ الصحيحين: «**لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار**»(٢) .

وفي الحديث الذي في السنن: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»(٣) .

وفي حديث آخر: «**ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه**»(٤) .

---

(١) ورواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤)، والنسائي (٤٩٨٧) وابن ماجة (٤٠٣٣)، وأحمد (٣/ ١٠٣)، من حديث أنس ﷺ.

(٢) انظر ما قبله.

(٣) رواه أبو داود (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة، ورواه الترمذي (٢٥٢١)، وأحمد (٣/ ٤٤٠)، والحاكم (٢/ ١٦٤)، من حديث معاذ بن أنس الجهني، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٠).

(٤) رواه البخاري في «الأدب» (٥٤٤)، وأبو يعلى (٣٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٩٩)، وابن الجعد في «مسنده» (٣٩٢)، والضياء في «المختارة» (١٧٤٤)، والطيالسي (٢٠٥٣)، والحاكم (٤/ ١٧١)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٢٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٥٠)، و«صحيح الجامع» (٥٤٧٠)، من حديث أنس ﷺ.

فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك.

فصل

وههنا أربعة أنواع من المحبة، يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها.

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه؛ فإن المشركين، وعباد الصليب، واليهود، وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله فيه، وهي من لوازم محبة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئًا مع الله لا لله ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس: ليس مما نحن فيه، وهو المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم، والزوجة، والولد، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

فصل

ثم الخلة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى في قلب المحب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما، وهذا المنصب خاص

للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»[١].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**»[٢].

وفي حديث آخر: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خُلته**»[٣].

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبة، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل إلى الامتثال، وقدم محبة ربه على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح، وفدي الولد بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا، بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدي المناجاة، وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال: «**لا يبدل القول لدي، هي خمس في الفعل، وهي خمسون في الأجر**»[٤].

فصل

وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد ﷺ حبيب الله فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٢٣)، وابن حبان (٦٤٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٦٨)، والروياني في «مسنده» (٩٦٠)، من حديث جندب بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٠)، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٣)، والترمذي (٣٦٥٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٠٥)، وابن ماجة (٩٣)، وأحمد (١/ ٣٧٧)، وأبو يعلى (٥١٨٠)، والحميدي (١١٣)، وابن حبان (٦٨٥٥)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢)، والنسائي (٤٤٨)، وابن ماجة (١٣٩٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

والخلة نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر ابن الخطاب وغيرهم[1].

وأيضًا فإن الله سبحانه ﴿**يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة:٢٢٢]، و﴿**يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦]، و﴿**يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٨]، و﴿**يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [المائدة:٤٢] والشاب التائب حبيب الله، وخلته خاصة بالخليلين، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ .

فصل

قد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة؛ كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله، أو لخلاصه من مكروه، كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعله.

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، وأيسر المكروهين على أقواهما، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض.

ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك، بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه. وإما لضعف في النفس وعجز في القلب، بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى، فقد وفق لأسباب السعادة.

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه، فيقهر

---

(1) لحديث عمرو بن العاص ﷺ: أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: «أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، فقلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثم من؟ قال: «**ثم عمر بن الخطاب**»، فعد رجالاً. الحديث رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

الغالب الضعيف، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته. وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله، ويقدم شهوته على عقله، وتسميه الأطباء: عديم المروءة، فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم، لقوة شهوتهم له.

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه، وهاتان القوتان في القلب، أصل سعادة العبد وشقاوته.

ووجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة.

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه، وهذا متعلق الأمر والنهي، وهو الذي يسمى الكف، وهو متعلق الثواب والعقاب، وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك، وهل هو أمر وجودي أو عدمي؟ والتحقيق أنه قسمان: فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضي عدمي، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي.

فصل

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحي لما فيه من حصول المنفعة التي يلتذ بحصولها، وزوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله، ولهذا يقال: شفى صدره، وشفى قلبه، قال:

هي الشفاءُ لدائي لو ظفرت بها وليس منها شفاء الداء مبذولُ

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم؛ ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطًا قبيحًا، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها، ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب، وخاصة العقل الناظر في العواقب،

فأعـقل الناس من آثر لذته وراحتـه الآجلة الدائمة على العـاجلة المنقضـية الزائلة، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضـية مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء: «فكرت فيما يسعى فيه العـقلاء، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعًا إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسـهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتـجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب، فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غيـر موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ولم أر في جمـيع هذه الطرق كلها طريقًا موصلة إليـه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء» .

فإن سالك هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيـا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت مـعه، وإن حصل للعـبد حصل له كل شيء، وإن فـاته فاته كل شيء، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه؛ فليس للعبد أنفع من هذه الطرق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته،وبالله التوفيق.

فصل

والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبـوب لغيره، والمحبوب لغيره لابد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه، دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيـره، وليس شيء يحب لذاته إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب إنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محـبته، فإن محبة المحبوب توجب محـبة ما يحبه، وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحـبة النافعة لغيره، والمحبة التي لا تنفع بل قد تضر.

فاعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته، وإلـهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها، فما كان أشد منافاة لمحابه، كان أشد كراهة من الأعيان، والأوصاف، والأفعال، والإرادات، وغيرها، فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعادته، فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه؛ علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم، ولا صلاة، ولا تمزق، ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا:

أحدهما: ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء الكريه، قال تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:٢١٦].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحب الراحة، والدعة، والرفاهية، وذلك شر لها لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب، فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه؛ فإن ذلك قد يكون شرًّا له، بل قد يجلب عليه غاية الألم، ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها، وإن كانت منقطعة.

فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه. ومكروه يوصل إلى محبوب

ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه، فالمحبوب الموصل إلى محبـوب قد اجتمع فـيه داعي الفعل من وجـهين، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين.

بقي القسمـان الآخران يتجاذبهما الداعـيان- وهما معترك الابتـلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقـربهما جوارًا منها، وهـو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعـهما وأبقاهمـا، والقلب بين الداعيين، وهو إلى هذا مرة، وإلى هذا مـرة، وههنا محل الابتـلاء شرعًا وقـدرًا؛ فداعـي العقل والإيمان ينادي كل وقت: حي على الـفلاح «عند الصباح يحمـد القوم السرى» وفي الممات يحمد العبد التـقى فإن اشتد ظلام ليل المحبة، وتحكم سلطان الشـهوة والإرادة يقول: يا نفسي اصبـري. فما هي إلا ساعة ثم تنقضي، ويذهب هذا كله ويزول.

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عـمل من حق وباطل، فأصل الأعمـال الدينية حب الله ورسوله، كـما أن أصل الأقـوال الدينية تصديق اللـه ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله، وتزاحـم هذه المحبة أو شبهة تمنع كمـال التصديق، فهي مـعارضـة لأصل الإيمان أو مضـعفـة له، فإن قـويت حتى عـارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثرت فيه ضعـفًا وفتـورًا في العزيمة والطلب، وهي تحـجب الواصل وتقطع الطالب وتنكس الراغب، فلا تصح الموالاة إلا بالمعـادة، كما قال تعالى عن إمـام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥، ٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتـحقـيق هذه المعاداة، فـإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراءة من كـل معـبود سواه. قـال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

إبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٨] أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبة يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم، والأموال، والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر، وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول، وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرض والسنة و «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(١) .

وروح **هذه الكلمة وسرها**: إفراد الرب جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره بالمحبة، والإجلال، والتعظيم، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل، والإنابة، والرغبة، والرهبة، فلا يحب سواه، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعًا لمحبته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يخاف سواه، ولا يرجى سواه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يُرهب إلا منه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا ينظر إلا له، ولايتاب إلا إليه، ولايطاع إلا أمره، ولا يتحسب إلا به، ولا يُستعان في الشدائد إلا به، ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه، ويجتمع ذلك كله في حرف واحد

---

(١) رواه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والحاكم (١/ ٣٥١)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١١٢)، من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٥٥)، و«الإرواء» (٦٧٩).

وهو أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣] فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره، وباطنه في قلبه، وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحًا**»[1] فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها، والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى، وعيشه أطيب عيش. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:٤٠، ٤١] فالجنة مأواه يوم اللقاء.

وجنة المعرفة، والمحبة، والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والفرح به، والرضا به وعنه؛ مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا، والأبرار في النعيم، وإن اشتد بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وطيب الحياة جنة الدنيا، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥] فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أمر من ضيق الصدر؟.

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (١٠٩٣٧)، وابن ماجة (٣٧٩٥)، وأحمد (١/ ٢٨) وأبو يعلى (٦٤٠)، من حديث طلحة بن عبيد الله.

وقال تعـالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢، ٦٤]فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

قال النبي ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنة قال: «**حلق الذكر**» (١).

ومن هذا قوله ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**» (٢).

ومن هذا قوله- وقد سـألوه عن وصاله في الصوم-: «**إني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**» (٣)فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقـوم مقـام الطعام، والشـراب الحسي، وأن مـا يحصل له من ذلـك أمر يختص به لا يشـاركه فيه غيـره، فإذا أمسك عن الطعام والشـراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه، ويغني عنه، كما قيل:

لها أحـاديث من ذكـراك تشـغلهـا ... عن الشـراب وتلهـيهـا عن الزاد

لها بـوجهـك نـور تستضيء بـه ... ومن حديثك في أعقابها حادي

إذا شكت من كلال السيـر أوعدها ... روح اللقـاء فتحيا عند ميعاد

وكلما كـان وجود الشيء أنفع للعـبد وهو إليه أحـوج كان تألمه بفقـده أشد، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة له ولا نعيم، ولا سرور، ولا بهجة إلا بذلك، فعدمه آلم شيء له وأشده عذابًا عليه، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العـذاب والألم لاشتغالها بغيره، واستـغراقها في

(١)سبق تخريجه.

(٢)سبق تخريجه.

(٣)رواه البخـاري (١٩٦١)، ومسلم (١١٠٤)، والترمـذي (٧٧٨)، من حديث أنس رضي الله عنه ورواه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها

ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذه منزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره، وأمواله، وأهله، وأولاده.

وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صحا، وكشف عنه غطاء السكر، وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ.

وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء، ومعاينة طلائع الآخرة، والإشراف على مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلى الله، بل الألم، والحسرة، والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بلا عوض عنه، ولا بدل منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها؟ فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته، وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات، فكيف وهناك من العذاب على الروح، والبدن بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين، اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه، فأصبحت وقد أخذ منك، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

وفي أثر إلهي: «ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

❑ ❑ ❑

فصل

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواع، وما لا تصلح إلا له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوها، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده، وكذلك الإنابة، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وأعظم أنواع المحبة المذمومة: المحبة مع الله التي يسوي المحب فيها بين محبته لله ومحبته للند الذي اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة: محبة الله وحده، ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هي أصل السعادة، ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها، والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة، ورأسها التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها، فأهل المحبة الذين أحبوا الله، وعبدوه وحده لا شريك له، لا يدخلون النار، ومن دخلها بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد.

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كليهما، وإخباره عن فعله بالنوعين، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والقرآن جاء في شأن النوعين.

وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم: إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له؛ المتضمنة لكمال حبه، وكمال الخضوع والذل له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي

نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(١)

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب ﵁ قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك**» قال: والذي بعثك بالحق لأنت أحب إلي من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**»(٢) فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان، وولده، ووالده والناس أجمعين، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه؟.

ومحبة الرب سبحانه وتعالى تختص عن محبة غيره في قدرها، وصفتها، وإفراده سبحانه بها، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده، ووالده، بل من سمعه، وبصره، ونفسه التي هي بين جنبيه، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله، والشيء قد يحب من وجه دون وجه، وقد يحب بغيره، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له، و: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:٢٢] والتأله: هو المحبة، والطاعة، والخضوع.

فصل

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة، فهي علتها الفاعلية والغائية. وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع: حركة اختيارية إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية.

والحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره، ومركزه الطبيعي، فهو يتحرك للعود إليه، وخروجه عن مركزه، ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرك له، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره،

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، والنسائي (٥٠٢٨)، وابن ماجة (٦٧)، وأحمد (٣/ ١٧٧، ٢٧٥)، وابن حبان (١٧٩)، من حديث أنس ﵁.

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٢)، وأحمد (٤/ ٢٣٣، ٣٣٦-٥/ ٢٩٣)، من حديث عبد الله بن هشام.

وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه، وكلا حركتيه تابعة للقاسر المحرك، فهو أصل الحركتين. والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين، فصارت الحركات الثلاثة تابعة للإرادة والمحبة.

والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث: أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية، وإن لم يكن له شعور بها، فإما أن تكون على وفق طبعه أو لا، فالأولى هي الطبيعية، والثانية القسرية، إذا ثبت هذا فما في السموات، والأرض، وما بينهما من حركات الأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، والرياح، والسحاب، والمطر، والنبات، وحركات الأجنة في بطون أمهاتها، فإنما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمرًا والمقسمات أمرًا، كما دلت على ذلك نصوص من القرآن، والسنة في غير موضع، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة، فإن الله وكل بالرحم ملائكة، وبالقطر ملائكة، وبالنبات ملائكة، وبالرياح ملائكة، وبالأفلاك، والشمس، والقمر، والنجوم، ووكَّل بكل عبد أربعة من الملائكة، كاتبين عن يمينه، وشماله، وحافظين من بين يديه، ومن خلفه، ووكل ملائكة بقبض روحه، وتجهيزها إلى مستقرها في الجنة والنار، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه في قبره، وعذابه هناك أو نعيمه، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة، ووكل بالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به، وبالقطر ملائكة تنزل بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله، ووكل ملائكة بغرس الجنة. وعمل آلتها، وفرشها، وثيابها، والقيام عليها، وملائكة بالنار كذلك، فأعظم جند الله الملائكة، ولفظ «الملك» يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر الله وإذنه، قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم:٦٤]، وقال تعالى: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ [النجم:٢٦] وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره في الخليقة كما قال تعالى: ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا**

(٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات:١- ٣] وقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات:١- ٦]، وقال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:١- ٥] وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب (أيمان القرآن) .

وإذا عرفت ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات والأفعال: هي عبادة منهم لرب الأرض والسموات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها، فلولا الحب ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيرات، ولا هبت الرياح المسخرات، ولا مرت السحب الحاملات، ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات، ولا تحركت المدبرات والمقسمات، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسموات، وما فيها من أنواع المخلوقات، فسبحان من ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء:٤٤] .

فصل

فإذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل بحسبه. وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة. ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون لحركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:٢٢] . ولم يقل سبحانه: لما وجدتا ولكانتا معدومتين، ولا قال: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ما حوتاه وسكن فيهما، فلو كان في العالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله كان يطلب مغالبة الآخر، والعلو عليه، وتفرده دونه بإلهيته، إذ الشركة نقص في كمال الإلهية، والإله لا يرضى لنفسه أن

يكون إلهًا ناقصًا، فإن قهر أحدهما الآخر، كان هو الإله وحده، والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما، ولم يكن تام الإلهية، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيها، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان. والشول إذا كان فيه فحلان.

وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم، وانفراد كل منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو على بعض.

فصلاح السموات والأرض واستقامتها وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجه الأعلى، قال الله تعالى: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

وقال تعالى: ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٣].

قال تعالى: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٤٢] فقيل: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم في بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿ **وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾.

قال شيخنا رضي الله عنه: والصحيح أن المعنى: لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا

عبيدًا له، قال: ويدل على هذا وجوه:

منها: قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [الإسراء:٥٧] هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ترجون رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: (لابتغوا إليه سبيلاً) وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب، كقوله تعالى: ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ [المائدة:٣٥]. وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى، كقوله: ﴿ **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً** ﴾ [النساء:٣٤].

والثالث: أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ** ﴾ وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقالوا: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدًا له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟

فصل

والمحبة لها آثار، وتوابع، ولوازم، وأحكام، سواء كانت محمودة، أو مذمومة، نافعة أو ضارة: من الوجد، والذوق، والحلاوة، والشوق والأنس والاتصال بالمحبوب، والقرب منه، والانفصال عنه، والبعد منه، والصد، والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان السعادة، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته.

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم؛ فإن النفس قد تهوى ما يضرها، ولا ينفعها، وذلك ظلم من الإنسان

لنفسه. إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم، وإما عالمة بما في محبته من المضرة لكن تؤثر هواها على علمها، وقد تتركب محبتها من أمرين: اعتقاد فاسد، وهوىً مذموم، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس؛ فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل، أو اعتقاد فاسد، أو هوىً غالب، أو ما تركب من ذلك وأعان بعضه بعضًا فتتفق شبهة وشهوة، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب، وشهوة تدعوه إلى حصوله، فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان، والغلبة لأقواهما.

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه، فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له، فحكمها حكم متبوعها؛ فإن بكى نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقربة، والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد.

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها، والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه، فكتب لهم به عمل

صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم.

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ما له وما عليه:

سيعلم يوم العرض أي بضاعة أضاع وعند الوزن ما كان حصلا

فصل

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم؛ فهي أصل كل دين سواء أكان حقًّا أو باطلاً، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُقُ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقًا وعادة، ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم:٤].

وقال الإمام أحمد عن ابن عيينة: قال ابن عباس: «لعلى دين عظيم»[١].

وسئلت عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خُلُقُهُ القُرآنُ»[٢].

والدين فيه معنى الإذلال والقهر، وفيه معنى الذل، والخضوع، والطاعة؛ فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل كما يقال: دنته فدان، أي: قهرته فذل.

قال الشاعر:

هو دان الرباب إذ كرهوا الدّ ين فأضحوا بعزة وصيال

ويكون من الأدنى إلى الأعلى، كما يقال: دنت الله، ودنت لله. وفلان لا يدين الله دينًا، ولا يدين الله بدين، فدان الله: أي: أطاع الله وأحبه وخافه، ودان لله: أي: تخشع له وخضع وذل وانقاد.

والدين الباطن لابد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء، بخلاف الدين الظاهر؛ فإنه لا يستلزم الحب، وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٠٣/٤).

(٢) رواه مسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والنسائي (١٦٠٠)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص١١٠)، من حديث عائشة.

وسمى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يوم الدين فإنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فسر بيوم الجزاء ويوم الحساب.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧].

أي: هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين، وهذه الآية تحتاج إلى تفسير؛ فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولابد أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول، لما بينهما من التلازم؛ فكل ملزوم دليل على لازمه، ولا يجب العكس.

ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم ربًّا قاهرًا لهم متصرفًا فيهم، كما سيميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإما أن لا يقروا برب هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور، والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟ وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر، وهم يعاينون موته: أي فهلا تردون الروح إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف، ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر، تمضي عليكم أحكامه، وتنفذ فيكم أوامره، وهذا غاية التعجيز لهم؛ إذ تبين عجزهم عن رد نفس واحدة من مكان إلى مكان، ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على ربوبيته سبحانه، ووحدانيته، وتصرفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم، وجريانها عليهم.

والدين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده؛

فالدين كله لله أمرًا أو جزاء، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه سبحانه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه؛ فهو يحب ضده، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه.

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضىً، كما قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا**»[1] فهذا دين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس. وكذلك دينه الجزائي فإن يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه، ويحب من يحبها، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه سبحانه، فهو على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه. كما قال تعالى إخبارًا عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه: ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[هود: ٥٤، ٥٦].

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي يقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة، والإحسان، والفضل، ووضع الثواب في موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء- أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا**

---

(١) رواه مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)، وأحمد (٢٠٨/١)، وابن حبان (١٦٩٤)، من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ.

أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِي ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤، ٥٦].

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته، فقال: ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦] فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ومثل هذا الأمر أجهل الجهل وأقبح الظلم.

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره ولا ظلمه، فإنه على صراط مستقيم. فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، ولا يخرج تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى، وأكرم، وهدى، ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع، وأهان، وأضل، وخذل، وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح: «**ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجًا**» قالوا: يا رسول الله ألا نتعلمهن؟ قال: «**بل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**»[(١)] .

وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري وقضاءه الذي يكون باختيار العبد

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٦٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤٠)، من حديث ابن مسعود، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان اهـ.

وغير اختياره، وكلا الحكمين ماض في عبده، وكلا القضاءين عدل فيه، فهذا الحديث مشتق من هذه الآية، وبينهما أقرب نسب.

فصل

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات، والأقوال، والأعمال، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم، وكما سنقرره أيضًا إن شاء الله.

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء. فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ههنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذ صادف حلالاً، بل يحمد كما في كتاب «الزهد» للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار، عن ثابت البناني عن أنس عن النبي ﷺ: «**حُبِبَ إلي من دُنياكم النساء والطيبُ، أصبرُ عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن**»[1].

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابًّا، وشهوة الشاب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبًا ليس له زوجة ولا سرية تكسر ثورة الشهوة.

---

(١) رواه النسائي (٣٩٤٩، ٣٩٥٠)، وأحمد (٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧٧٢)، والبيهقي (٧/ ٧٨)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، من حديث أنس دون قوله: «**أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن**» فهي زيادة منكرة عن أنس، والحديث بدون هذه الزيادة صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١١٩)، و«تحقيق المشكاة» (٥٢٦١).

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه، وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا أبية، فإن كثيرًا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذلك الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء، والامتناع إرادة وحبًّا، كما قال الشاعر:

وزادني كلفًا في الحب أن منعت وأحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته، أو سريته، وإبائها، بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظيرها ما يحصل من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقًا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنا؟ قالت: «قرب الوساد وطول السواد» تعنى: قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد

بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال. فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن فقال: ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [يوسف:٣٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿**أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾ [يوسف:٢٩] وللمرأة: ﴿**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ [يوسف:٢٩]. وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع. وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾ [يوسف:٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة، لعلنا إن وفقنا الله أن نفردها في مصنف مستقل.

فصل

والطائفة الثانية، الذين حكى الله عنهم العشق: هم اللوطية. كما قال تعالى: ﴿**وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر:٦٧، ٧٢] فهذه الأمة عشقت. فحكاه سبحانه عن طائفتين، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولم

يُبال بما في عشقه من الضرر.

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه، وعز عليهم شفاؤه، وهو لعمر الله الداء العضال، والسم القتال، الذي ما علق بقلب إلا وعز على الورى استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام:

تارة يكون كفرًا، كمن اتخذ معشوقه ندًّا، يحبه كما يحب الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا عشق لا يغفر لصاحبه، فإنه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك وعلامة العشق الشركي الكفري: أن يُقدم العاشق رضاء معشوقه على رضى ربه، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه، وحق ربه وطاعته، قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه، وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه، وبذل [illegible] إن بذل- أردأ ما عنده، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه، وجعل لربه- إن أطاعه- الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته.

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم في كفة وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، ثم زن وزنًا يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه. كما قال الفاسق الخبيث:

يترشفن من فمي رشفات هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه- فعياذًا بك اللهم من هذا الخذلان- فقال:

وصلك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك، وكثير من العشاق يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبدًا محضًا من كل وجه لمعشوقه: فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية

مخلوق مثله، فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع، وهذا قد استفرغ قوة حبه، وخضوعه، وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية.

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك. وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أُبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إلي من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله.

فصل

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف أن ما ابتلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد، إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولاً. ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه: ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه. وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته

الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به ولابد، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب	**وإن وجد الهوى حلو المذاق**
تراه باكيًا في كل حين	**مخافة فرقة أو لاشتياق**
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم	**ويبكي إن دنوا حذر الفراق**
فتسخن عينه عند الفراق	**وتسخن عينه عند التلاقي**

والعشق، وإن استعذبه صاحبه، فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب، كما قال بعض هؤلاء:

ملكت فؤادي بالقطيعة والجفا	**وأنت خلي البال تلهو وتلعب**
فعيش العاشق عيش الأسير الموثق	**وعيش الخلي عيش المسيب المطلق**
طليق برأي العين وهو أسير	**عليل على قطب الهلاك يدور**
وميت يرى في صورة الحي غاديًا	**وليس له حتى النشور نشور**
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه	**فليس له حتى الممات حضور**

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

الخـامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسـرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب.

وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق، وقوي اتصاله به بعد من الله، فـأبعد القلوب مـن الله قلوب عشـاق الصـور، وإذا بعد القلـب من الله طرقتـه الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يدع أذىً يمكنه من إيصاله إليـه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عـدوه وأحرص الخلق على غيـه وفساده، وبعـد منه وليه ومن لا سـعادة ولا فلاح ولا سـرور إلا بقربه وولايته؟.

السـادس: أنه إذا تمكن من القلب واسـتحكم وقوي سلطانه، أفسد الذهن وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

وأخبار العشاق في ذلك مـوجودة في مواضعها، بل بعضهـا مشاهد بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عدم عقله التحق بالحيـوان البهـيم، بل ربما كان حـال الحيـوان أصلح من حاله، وهل أذهـب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره، كما قيل:

قـالوا جننت بمن تهـوى فـقلت لهم   العـشق أعظـم مما بالمجـانين
العـشق لا يستـفيـق الدهر صـاحبـه   وإنما يُصـرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها، إما إفسادًا معنويًّا أو صوريًّا، أما الفسـاد المعنوي فهو تابع لـفساد القلب، فـإن القلب إذا فسد فـسدت العين والأذن واللسان. فيرى القبيح حينًا منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعًا: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»[1] فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه، فلا ترى

---

(١) رواه أبو داود (٥١٣٠)، وأحمد (٦/ ٤٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٥٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢١٩)، من حديث أبي الدرداء ﵁، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٨٦٨)، و«ضعيف الجامع» (٢٦٨٨).

العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه، حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوة على العين، تمنع من رؤية الشيء على ما به، كما قيل:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وأما فساد الحواس ظاهرًا فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو المعروف في أخبار من قتلهم العشق.

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدًا على عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة، بحيث يستولي المعشوق على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوى الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوى، فيحدث بتعطيلها من الآلات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر. فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحب أول ما يكون لجاجة يأتي بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم، وآخره عطب

وقتل، إن لم تتداركه عناية من الله، كما قيل:

وعش خاليًا فالحب أوله عنى ... وأوسطه سقم وآخرهُ قتلُ

وقال الآخر:

تولع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق

رأى لُجَّةً ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

والذنب له، وهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر.

«يداك أوكتا وفوك نفخ»[١].

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه، قالوا: يجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرًا قدرًا وشرعًا، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه- وهذا مقام التوسط والانتهاء- فعليه كتمان ذلك، وأن لا يفشيه إلى الخلق، ولا يشبب بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم. فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررًا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله. فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة، وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون.

وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقيني، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبًا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزمًا لا يحتمل النقيض، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقًا، لجزموا أن ذلك عن وعد واتفاق

---

(١) يقال: أوكى الصرة والقربة ونحوهما أي: ربطها بالوكاء وهو الرباط وهذا المثل يضرب لمن يقوم بالجناية على نفسه حيث إنه الذي قام بالنفخ والربط بيديه، ولم ينفعه ذلك. وانظر «مجمع الأمثال» للميداني (٤٦٥٥).

بينهما، وجزمهم في هذا الباب على الظنون، والتخيل، والشبه، والأوهام، والأخبار الكاذبة، كجزمهم بالحسيات المشاهدة، وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من فوق سبع سموات، بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر، حتى هلك من هلك، ولولا أن تولى الله سبحانه وتعالى براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها، لكان أمرًا آخر[1].

والمقصود: أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله، وتعرض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه، إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر، وصار ذلك الواسطة ديوثًا ظالمًا، وإذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائش- وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة- فما ظنك بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس، أو مال، أو عرض؟ فإنه كثيرًا ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه، وكم من قتيل طل دمه[2] بهذا السبب من زوج وسيد وقريب، وكم خببت امرأة على بعلها وجارية وعبد على سيدهما، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه، وهو من أكبر الكبائر.

وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، أو أن يستام على سوم أخيه، فكيف بمن يسعى في التفريق بين رجل وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما؟

وعشاق الصور ومساعدوهم من الديائثة[3] لا يرون ذلك ذنبًا، فإن طلب

---

(١) انظر تفاصيل قصة الإفك في «صحيح البخاري» (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠)، والترمذي (٣١٨٠)، وابن ماجة (٢٥٦٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) طُلَّ دَمُهُ: أي أُهْدِرَ دمه دون قصاص أو دية.

(٣) خَبَّبَتْ: أي أغويت وأفسدت على زوجها بالخديعة والغواية.

الديائثة: جميع دَيُّوثَ وهو الذي لا يغار على أهله ويقبل عليهم السوء.

العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد، ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة، إن لم يرب عليها، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باقٍ له المطالبة به يوم القيامة، فإن ظلم الوالد بإفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه، فظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على فراشه، أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه، فيا له من ظلم أعظم إثمًا من فعل الفاحشة، فإن كان ذلك حقًّا لغاز في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة، وقيل له: «**خذ من حسناته ما شئت**» كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ثم قال رسول الله ﷺ: «**فما ظنكم**»[1] أي: فما تظنون يبقى له من حسناته؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جارًا، أو ذا رحم محرم. تعدد الظلم فصار ظلمًا مؤكدًا لقطيعة الرحم وأذى الجار، و «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[2]، ولا «**من لا يأمن جاره بوائقه**»[3].

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين من الجن- إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك- ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر، فإن لم يفعله هو ورضي به كان راضيًا بالكفر غير كاره لحصول مقصده به، وهذا ليس ببعيد من الكفر.

والمقصود: أن التعاون في هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان.

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدي ضرره فأمر لا يخفى، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فالمعشوق أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها، فلا يجد من إعانته بدًّا، فبقي كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله، وأقاربه،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦)، وأبو داود (١٦٩٦)، والترمذي (١٩٠٩)، وأحمد (٤/ ٨٠) من حديث جبير بن مطعم.

(٣) سبق تخريجه.

وسيده، وزوجه، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفًا على ظلمه، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي فيها ظلم الناس، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغي، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله، وفي تحصيل مال من غير حله، وفي استطالته على غيره. فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا في جانب المعشوق، ظالمًا كان أو مظلومًا، هذا إلى ما ينضم إلى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم، والتوصل بها إلى المعشوق بسرقة، أو غصب، أو خيانة، أو يمين كاذبة، أو قطع طريق، أو نحو ذلك، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه.

وكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور، وربما تحمل على الكفر الصريح، وقد تنصر جماعة ممن نشئوا في الإسلام بسبب العشق، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح، ففتن بها فنزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت: هي نصرانية، إن دخلت في ديني تزوجت بك، ففعل، فرقي في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات. ذكر هذا عبد الحق في كتاب «العاقبة» له.

وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير، أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها، فهنالك: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم:٢٧].

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعاونته على الفاحشة وظلمه لنفسه ما فيه. وكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه، وظلمهما متعد إلى الغير كما تقدم، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك، فقد تضمن العشق أنواع

الظلم كلها.

والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف، وذلك ظلم منه، أن يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله، ونفعه، ولا يمكنه من نفسه، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه، فهو يسومه سوء العذاب، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه، ولا سيما إن جاد بالوصال لغيره. فكم للعشق من قتيل من الجانبين، وكم أزال من نعمة، وأفقر من غني، وأسقط من مرتبة، وشتت من شمل، وكم أفسد من أهل للرجل وولده، فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقًا لغيرها اتخذت هي معشوقًا لنفسها، فيصير الرجل مترددًا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة، فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا.

فعلى العاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد، أو أكثرها، أو بعضها، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرور بها، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها. فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع. فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الإياس من ذلك لم يحدث له العشق، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره، ولم يشتغل قلبه به لم يحدث له ذلك، فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله. إما خوف ديني كدخول النار وغضب الجبار واحتقاب[1] الأوزار. وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له ذلك العشق. فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه، أو ماله، أو ذهاب جاهه، وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه، وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه. وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذلك المعشوق، وقدم محبته على محبة ذلك المعشوق اندفع عنه العشق، فإن انتفى ذلك كله وغلبت محبة المعشوق لذلك، انجذب إليه القلب بكليته، ومالت إليه

---

(١) احتقاب الأوزار: ارتكاب الذنوب.

النفس كل الميل.

فإن قيل: قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها: رقة الطبع، وترويح النفس، وخفتها، وزوال ثقلها، ورياضتها، وحملها على مكارم الأخلاق، من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب؟

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي: إن ابنك قد عشق فلانة، فقال: الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي.

وقال بعضهم: العشق داء أفئدة الكرام.

وقال غيره: العشق لا يصلح إلا لذي مروءة ظاهرة وخليقة طاهرة، أو لذي لسان فاضل وإحسان كامل، أو لذي أدب بارع، وحسن ناصع.

وقال آخر: العشق يشجع جنان الجبان، ويصفي ذهن الغبي، ويسخي كف البخيل، ويذل عزة الملوك، ويسكن نوافر الأخلاق، وهو أنيس من لا أنيس له، وجليس من لا جليس له.

وقال آخر: العشق يزيل الأثقال، ويلطف الروح، ويصفي كدر القلب، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام، كما قال الشاعر:

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم إذا غاله من جانب الحب غائله
كريم يميت السر حتى كأنه إذا استفهموه عن حديثك جاهله
يود بأن يمسي سقيمًا لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلا لتحمد يومًا عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق. وقال بعض الحكماء: العشق يروض النفس، ويهذب الأخلاق، إظهاره طبعي، وإضماره تكلفي.

وقال آخر: من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي، فهو فاسد المزاج، محتاج إلى علاج، وأنشد في ذلك:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فما لك في طيب الحياة نصيبُ

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فأنت وغير في الفلاة سواءُ

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فكن حجراً من جانب الصخر جلمدا

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فقم فاعتلف تبنًا فأنت حمارُ

وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة: عفوا تشرفوا، واعشقوا تظفروا.

وقيل لبعض العشاق: ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟ فقال: كنت أمتع طرفي بوجهه، وأروح قلبي بذكره وحديثه، وأستر منه ما لا يحب كشفه، ولا أصير بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده. ثم أنشد:

أخلو به فأعف عنه تكرمًا   خوف الديانة لست من عشاقه

كالماء في يد صائم يلتذه   ظمأ فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم: أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة، نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يحيي موات القلوب، ويزيد في العقول، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا.

وقال آخر: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته ضرك، وإن أكثرت منه قتلك، وفي ذلك قيل:

خليلي إن الحب فيه لذاذةٌ   وفيه شقاء دائم وكروب

على ذاك ما عيش يطيب بغيره   ولا عيش إلا بالحبيب يطيب

ولا خير في الدنيا بغير صبابة   ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال: مر أبو بكر الصديق ﷺ بجارية وهي تقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي   متمايلاً مثل القضيب الناعم

فسألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، فقال: من هواك؟ فتلكأت:

فأقسم عليها. فقالت:

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال: هؤلاء فتن الرجال، وكم والله قد مات بهن كريم، وعطب بهن سليم(١).

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان ﷺ تستعدي على رجل من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قصتك؟ فقالت: كلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه، فما أنفك أراعيه، فقال عثمان: إما أن تهبها لابن أخيك. أو أعطيك ثمنها من مالي، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام في العشق العفيف، من الرجل الظريف، الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا عشق السلف الكرام، الأئمة الأعلام، فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره، ولم ينكر عليه، وعد ظالمًا من لامه، ومن شعره:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ولامك أقوام ولومهم ظلم

فنم عليك الكاشحون وقبلهم عليك الهوى قد نم لو ينفع الكتم

فأصبحت كالهندي إذا مات حسرة على إثر هند أو كمن شفه سقم

تجنبت إتيان الحبيب تأثمًا ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

فذق هجرها، قد كنت تزعم أنه رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك، وكانت جارية بارعة الجمال، وكان معجبًا بها، وكان يطلبها من امرأته ويحرص

---

(١) رحم الله ابن القيم فما كان أغناه عن ذكر هذه المرويات الباطلة والتي لا أصل لها عن أئمة المسلمين، وكان أجدر به وهو -المناضل عن منهج أهل السنة- وطريقة أهل الحديث أن يبتعد عن تلك التخرصات والنقولات عن الكذابين والوضاعين أو كتب القصاصين التي لا سند لها. وسيأتي في الصفحات القادمة كثير من هذه القصص والروايات فانتبه!!

على أن تهبها له، فتأبى، ولم تزل الجارية في نفس عمر، فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت، وكانت مثلاً في حسنها وجمالها، ثم دخلت على عمر، وقالت: يا أمير المؤمنين إنك كنت معجبًا بجاريتي فلانة، وسألتها فأبيت عليك، والآن فقد طابت نفسي لك بها، فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه، وقال: عجلي علي بها، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبًا، وقال لها: ألقي ثيابك، ففعلت ثم قال لها: على رسلك، أخبريني لمن كنت؟ ومن أين صرت لفاطمة؟ فقالت: أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالاً، وكنت في رقيق ذلك العامل، فأخذني وبعث بي إلى عبد الملك فوهبني لفاطمة، قال: وما فعل ذلك العامل؟ قالت: هلك، قال: وهل ترك ولدًا؟ قالت: نعم، قال: فما حالهم؟ قالت: سيئة، فقال: شدي عليك ثيابك واذهبي إلى مكانك، ثم كتب إلى عامله على العراق: أن ابعث إلى فلان بن فلان على البريد، فلما قدم قال له: ارفع إلي جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك، فلم يرفع إليه شيئًا إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ثم قال له: إياك وإياها، فلعل أباك قد ألم بها، فقال الغلام: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: لا حاجة لي بها، قال: فابتعها مني، قال: لست إذًا ممن نهى النفس عن الهوى، فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت: أين وجدك بي يا أمير المؤمنين؟ قال: على حاله، ولقد زاد. ولم تزل الجارية في نفس عمر، حتى مات رحمه الله.

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم من: الفقه، والحديث، والتفسير، والأدب، وله قول في الفقه، وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور.

قال نفطويه: دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه، فقلت: كيف تجدك؟ فقال: حب من تعلم أورثني ما ترى، فقلت: وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما: النظر المباح، والآخر: اللذة المحظورة، فأما النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة فيمنعني

منها مـا حدثني أبي حدثنا سـويد بن سعيد حـدثنا علي بن مسهـر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس ﷺ يرفعه: «**من عشق وكتم وعف وصبر، غفر الله له وأدخله الجنة**»[1] .

ثم أنشد:

انظر إلى السحر يجرى في لواحظه وانظر إلى دعج في طرفه الساجي[2]
وانظر إلى شعرات فوق عارضه كأنهن نمال دب في عاج

ثم أنشد:

ما لهم أنكروا سوادًا بخديه ولا ينكرون ورد الغصون
إن يكن عيب خده برد الشعر فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له: نفيت القياس في الفقه وأثبته في الشعر؟ فقال: غلبة الوجد وملكة النفس دعت إليه، ثم مات من ليلته، وبسبب معشوقه صنف كتاب «الزهرة» .

ومن كلامه فيه: «من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه، وذلك أن أول روعات اليأس تأتي القلب وهو غير مستعد لها، فأما الثانية فتأتي القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى» .

والتقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن علي بن عيسى الوزير، فتناظرا في مسألة من الإيلاء، فقال له ابن سريج: أنت بأن تقول: من

---

(١) حديث موضوع أنكره حفاظ الإسلام، رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٥٢)، ومداره على سويد بن سعيد بن سهل الهروي الأصل، وهو صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه فأفحش فيه ابن معين القول «التقريب» (١/ ٢٠٦٠)، وقال عنه ابن معين: لو كان لي فرس ورمح لغزوت سويد بن سعيد ، والحديث أورده ابن القيم في «المنار المنيف» برقم (٣٢١) وقال: موضوع على رسول الله ﷺ والحديث قال عنه الألباني -رحمه الله- في «الضعيفة» (٤٠٩) و«ضعيف الجامع» (٥٦٩٨): موضوع.

(٢) اللواحظ: جمع «لاحظة» وهي مقلة العين، الدعج: هو شدة سواد العين وبياضها مع اتساعها، طَرَفِه: عينه، الساجي: الهادي الناعس الساكن. العارض: صفحة الخد.

النمال: النمل، والمعنى أنه يصف معشوقه بأن له وجه أبيض مثل العاج خالطه بعض الشعيرات السوداء على عارضه.

دامت لحظاته كثرت حسراته، أحذق منك بالكلام على الفقه، فقال: لئن كان ذلك فإني أقول:

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما

وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنهُ يصب على الصخر الأصم تهدما

وينطق طرفي عن مترجم خاطري فلولا اختلاسي وده لتكلما

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فلست أرى ودًا صحيحًا مسلما

فقال له أبو العباس بن سريج: بم تفخر علي؟ ولو شئت لقلت:

ومطاعم كالشهد في نغماته قد بت أمنعه لذيذ سناته

بصبابة وبحسنه وحديثه وأنزه اللحظات عن وجناته

حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر: يحفظ عليه الوزير ما أقر به حتى يقيم شاهد على أنه ولى بخاتم ربه وبراءته، فقال ابن سريج: يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك:

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعتما لطفًا وظرفًا، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه، وجاءته يومًا فتيا مضمونها:

يا ابن داود، يا فقيه العراق أفتنا في قواتل الأحداق

هل عليها بما أتت من جناح أم حلال لها دم العشاق؟

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين:

عندي جواب مسائل العشاق فاسمعه من قرح الحشا مشتاق

لما سألت عن الهوى هيجتني وأرقت دمعًا لم يكن بمراق

إن كان معشوقًا يعذب عاشقًا كان المعذبُ أنعم العشاق

قال صاحب كتاب «منازل الأحباب» شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد صاحب كتاب «الإنشاء» : وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيبًا:

قل لمن جاء سائلاً عن لحاظ هُن يلعبن في دم العُشّاق

ما على السيف في الورى من جناح ... إن ثنى الحد عن دم مهراق

وسيوف اللحاظ أولى بأن ... تصفح عما جنت على العشاق

إنما كل من قتلن شهيد ... ولهذا يفنى ضنى وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني شيخ الحنابلة في وقته رحمه الله:

قل للإمام أبي الخطاب مسألة ... جاءت إليك وما خلق سواك لها

ماذا على رجل رام الصلاة فمذ ... لاحت لخاطره ذات الجمال لها

فأجاب تحت سؤاله:

قل للأديب الذي وافى بمسألة ... سرت فؤادي لما أن أصخت لها

إن التي فتنته عن عبادته ... خريدة ذات حسن فانثنى ولها

إن تاب ثم قضى عنه عبادته ... فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسي: حججت سنة، ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ، فبينا أنا جالس ليلة بين القبر والمنبر، إذ سمعت أنينًا فأصغيت إليه، فإذا هو يقول:

أشجاك نوح حمائم في السحر ... فأهجن منك بلابل الصدر(١)

أم عز نومك ذكر غانية ... أهدت إليك وساوس الفكر(٢)

يا ليلة طالت على دنف ... يشكو السهاد وقلة الصبر(٣)

أسلمت من تهوى لحر جوى ... متوقدًا كتوقد الجمر(٤)

فالبدر يشهد أنني كلف ... مغرم بحب شبيهة البدر

ما كنت أحسب أهيم بها ... حتى بليت وكنت لا أدري

---

(١) أشجاك: أحزنك وأثار شوقك. أَهْجَنَ: أثرن.
بلابل الصدر: أحزانه وهمومه المحيرة.
(٢) عز نومك: صعب وأصبح عسيرًا.
(٣) الدَّنِف: شديد المرض والذي أشرف على الموت.
(٤) الجَوَى: شدة الوجد من العشق أو الحزن.

ثم انقطع الصوت، فلم أدر من أين جاء، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين، ثم أنشد:

أشجاك من ريا خيال زائر والليل مسود الذوائب عاكر[(١)]
واغتال مهجتك الهوى برسيسه واهتاج مقلتك الخيال الزائر[(٢)]
ناديت: ريا والظلام كأنه يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسري في السماء كأنه ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص في الدجى رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
يا ليل طلت على محب ماله إلا الصباح مساعد وموازر
فأجابني مت حتف أنفك واعلمن أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال: وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده، فرأيت شاب مقتبلاً شبابه قد خرق الدمع في خده خرقين، فسلمت عليه، فقال: اجلس من أنت؟ قلت: عبد الله بن معمر القيسي، قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم، كنت جالسًا في الروضة فما راعني إلا صوتك. فبنفسي أفديك، فما الذي تجد؟ فقال: أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، غدوت يومًا إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه، ثم اعتزلت غير بعيد، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا، وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال، كاملة الملاحة، فوقفت علي فقالت: يا عتبة، ما تقول في وصل من تطلب وصلك؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبرًا، ولا قفوت لها أثرًا، وأنا حيران أنتقل من مكان إلى آخر، ثم صرخ وأكب مغشيًا عليه، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس[(٣)]، وهو يقول:

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة فيا هل تروني بالفؤاد على بعدي
فؤادي وطرفي يأسفان عليكم وعندكم روحي وذكركم عندي

---

(١) العاكر: شديد السواد. ريا: اسم محبوبته.
(٢) الرسيس: أول الشيء، والمقصود هنا بداية الحُمّى من الشوق والعشق.
(٣) الوَرْس: نبات صبغي يميل إلى الحمرة يستعمل لتلوين الحرير.

ولست ألذ العيش حتى أراكم ... ولو كنت في الفردوس في جنة الخلد

فقلت: يا ابن أخي تب إلى ربك واستغفره من ذنبك، فبين يديك هول المطالع، فقال: ما أنا بسال(۱) حتى يئوب القارظان(۲)، ولم أزل معه إلى أن طلع الصبح، فقلت: قم بنا إلى مسجد الأحزاب، فلعل الله أن يكشف كربتك، فقال: أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طلعتك، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب فسمعته يقول:

يا للرجال ليوم الأربعاء أمـا ... ينفك يحدث لي بعد النهى طربًا
ما إن يزال غزال منه يقتلنـي ... يأتي إلى مسجد الأحزاب منتقبًا
يخبر الناس أن الأجر همته ... وما أتى طالبًا للخير محتسبًا
لو كان يبغي ثوابًا ما أتى صلفًا ... مضخمًا بفتيت المسك مضمخًا(۳)

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن، فوقفن عليه، وقلن له: يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك، وكاسفة بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة، فسألتهن عن الجارية فقلن: هي ريا ابنة الغطريف السلمي، فرفع عتبة رأسه إليهن وقال:

خليلي ريا قد أجد بكورها ... وسارت إلى أرض السماوة عيرها
خليلي إني قد عشيت من البكا ... فهل عند غيري مقلة أستعيرها؟

فقلت له: إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر، ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق رضاك، فقم بنا إلى مسجد الأنصار، فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فسلمت فأحسنوا الرد، فقلت: أيها الملأ، ما تقولون في عتبة وأبيه؟ قالوا: من سادات العرب، قلت: فإنه قد رمى بداهية الهوى، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة، فقالوا: سمعًا وطاعة، فركبنا وركب القوم معنا

---

(۱) ما أنا بسالٍ: من السلوى وهو النسيان وطيب النفس أي أنه لن ينساها ولن تطيب نفسه أبدًا.
(۲) حتى يئوب القارظان: القارظ هو الذي يجمع القَرَظ، وهو نوع من الصبغ معروف عند العرب، وقد خرج اثنان قارظان -يجمعان القرظ- فلم يرجعا فضرب بهما المثل في طول الغيبة والانقطاع.
(۳) صَلِفًا: متكبرًا متفاخرًا، مُضَمَّخ: أي مُدَّهن جِسْمُه بالعِطر.

حتى أشرفنا على منازل بني سليم، فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادرًا فاستقبلنا، وقال: حييتم يا كرام، فقلنا: وأنت فحياك الله، إنا لك أضياف، فقال: نزلتم أكرم منزل، ثم نادى: يا معشر العبيد، أنزلوا القوم، ففرشت الأنطاع والنمارق وذبحت الذبائح، فقلنا: لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا، فقال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر، فقال: إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها، وأنا أدخل أخبرها، ثم دخل مغضبًا على ابنته، فقالت: يا أبت ما لي أرى الغضب في وجهك؟ فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك مني، فقالت: سادات كرام، استغفر لهم النبي ﷺ، فلمن الخطبة منهم؟ فقال: لعتبة بن الحباب، قالت: والله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد، ويدرك إذا قصد، فقال: أقسمت لا أزوجنك به أبدًا، ولقد نمى إلي بعض حديثك معه، فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذا أقسمت، فإن الأنصار لا يردون ردًّا قبيحًا، حسن لهم الرد، فقال: بأي شيء؟ قالت: أغلظ لهم المهر، فإنهم يرجعون ولا يجيبون، فقال: ما أحسن ما قلت: ثم خرج مبادرًا، فقال: إن فتاة الحي قد أجابت، ولكني أريد لها مهر مثلها، فمن القائم به؟ فقال عبد الله بن معمر: أنا، فقل ما شئت، فقال: ألف مثقال من الذهب، ومائة ثوب من الأبراد، وخمسة أكرشة عنبر، فقال عبد الله لك ذلك كله، فهل أجبت؟ قال: أجل، قال عبد الله: فأنفذت نفرًا من الأنصار إلى المدينة، فأتوا بجميع ما طلب، ثم صنعت الوليمة، وأقمنا على ذلك أيامًا، ثم قال: خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين، ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف، فودعناه وسرنا، حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة، خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم، فحمل عليها عتبة بن الحباب، فقتل منهم رجالاً وجرح آخرين، ثم رجع وبه طعنة تفور دمًا، فسقط إلى الأرض، وانثنى بخده فطردت عنا الخيل وقد قضى عتبة نحبه، فقلنا: واعتباتاه، فسمعتنا الجارية، فألقمت نفسها من البعير، وجعلت تصيح بحرقة، وأنشدت:

تصبرت لا أني صبرت وإنما ... أعلل نفسي أنها بك لاحقة

فلو أنصفت روحي لكانت إلى الردى أمامـك من دون البرية سابقة
فمـا أحد بعدي وبعـــدك منصــف خليـلاً ولا نفس لنفس موافقة

ثم شهقت وقضت نحبها، فاحتفرنا لهما قبرًا واحدًا ودفناهما فيه، ثم رجعت إلى المدينة فأقمت سبع سنين، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة، فقلت: والله لآتين قبر عتبة أزوره، فـأتيت القبر، فإذا عليه شجرة عليها عـصائب حمر وصفر، فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين.

ولو لم يكن في العـشق من الرخـصة المخـالفة للتـشديد إلا الحـديث الوارد بالحسن من الأسـانيد، هو حديث سويد بن سـعيد، عن علي بن مسـهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس يرفعه: «**من عشق وعف، وكتم فمات، فهو شهيد**»(١) ورواه سويد أيضًا، عن ابن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مـرفوعًا(٢)، ورواه الخطيب، عن الأزهري، عن المعـافى بن زكريا، عن قطبة، عن ابن الفضل، عن أحمد بن مسروق عنه، ورواه الزبير بن بكار، عن عبد العزيز الماجشون، عن عبد العـزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وهذا سيد الأولين والآخـرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنهـا فقال: «**سبحان مقلب القلوب**»(٣) وكـانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فلما هـم بطلاقها قال له: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**» فلمـا طلقهـا زوجها الله سبحـانه من رسوله ﷺ من فوق سـبع سمـوات، فكان هو وليها وولي تزويجـها من رسوله ﷺ، وعقد نكاحهـا فوق عرشه، وأنزل على

(١)سبق تخريجه - وهو حديث موضوع.
(٢)حديث موضوع: وانظر «السلسلة الضعيفة» للعلامة الألباني (٤٠٩).
(٣)خبر باطل: رواه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٨٩)، وابن سـعد في «الطبقات» (٨/ ١٠٢) والحاكم في المستدرك» ومداره على محـمد بن عمر الواقدي وهو متهم بالكذب، قال البـخاري: متروك الحديث، ونقل عن أحمد ابن حنـبل تكذيبه وذكره النسائي في «الكذابين»، انظر: «تهـذيب التهذيب» (٩/ ٣٢٥)، وفي «التقريب» (١/ ٤٩٨): متروك.

رسوله ﷺ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾(١) [الأحزاب:٣٧].

وهذا داود نبي الله عليه السلام لما كان تحته تسع وتسعون امرأة، ثم أحب تلك المرأة فتزوجها وكمل المائة(٢).

وقال الزهري: أول حب كان في الإسلام، حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها(٣)، وكان مسروق يسميها: حبيبة رسول الله ﷺ(٤).

وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو: «أرسلني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألها: أكان النبي ﷺ يقبل أهله وهو صائم؟ فقالت: لا، فقال: إن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يقبلها وهو صائم. فقالت: أم سلمة رضي الله عنها: إن النبي ﷺ كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها»(٥).

وذكر سعيد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: كان إبراهيم الخليل ﷺ يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق لشغفه بها، وقلة صبره عنها(٦)!!.

وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه اشترى جارية رومية، فكان يحبها

---

(١) رحم الله الإمام ابن كثير حيث إنه قال في معرض تفسيره لهذه الآيات: ذكر ابن أبي حاتم، وابن جرير ههنا آثارًا عن بعض السلف رضي الله عنهم فأحببنا أن نضرب عنها صفحًا لعدم صحتها فلا نوردها. اهـ. (٣/٤٧٢)، فأعرض -رحمه الله- ونزه رسول الله ﷺ بعدم ذكره لهذه الأخبار.

(٢) ذكره ابن جرير في «تفسيره» (٦/١١٢)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/٣٢): هذه قصة مأخوذة من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم ﷺ حديث يجب اتباعه.

(٣) خبر باطل، رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٣٤) عن الزهري ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٤٤) عن الزهري عن أنس.

(٤) الإصابة (٤/٣٦٠).

(٥) رواه النسائي في «الكبرى» (٣٠٧٢)، وأحمد (٦/٢٩٦، ٣١٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/٩٣).

(٦) ذكره الفاكهي في «أخبار مكة» عن الواقدي، وهو متروك.

حبًّا شديدًا، فوقعت ذات يوم عن بغلة له، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها، وكانت تكثر أن تقول له: يا بطرون أنت قالون، تعني يا مولاي أنت جيد، ثم إنها هربت منه، فوجد عليها وجدًا شديدًا، وقال:

قد كنت أحسبني قالون فانصرفت فاليوم أعلم أني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم: وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير، وقال رجل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : يا أمير المؤمنين، رأيت امرأة فعشقتها، فقال: ذلك ما لا تملك.

فالجواب، وبالله التوفيق:

إن الكلام في هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الحرام والجائز، والنافع والضار، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار، ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة، وإنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم، ونحن نذكر النافع من الحب والضار، والجائز والحرام.

المحبة النافعة:

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق، وأوجبها وأعلاها، وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، وبها قامت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال، والتعظيم والذل له والخضوع، والتعبد والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله، والله تعالى يحب لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يحب تبعًا لمحبته.

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كل الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣] وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال، والجلال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٤، ٥٦].

والولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله تعالى يوالي عبده بحسب محبته له.

ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر على من يسوي بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحب الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] وأخبر عمن يسوي بينه وبين الأنداد في الحب، أنهم يقولون في النار لمعبوديهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

وبهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السموات

والأرض، والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله، والنار للمشركين به فيه.

وقد أقسم النبي ﷺ أنه: «**لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»(١) فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟.

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك**»(٢) أي: لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره، أولى بمحبة عباده من أنفسهم؟ وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته، مما يحب العبد ويكره، فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله، وفضله، وإماتته وإحياؤه، ولطفه، وبره، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه، وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه، كل ذلك داع للقلوب إلى تألهه، ومحبته، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها، وستره حتى يقضي وطره منها وكلاءته وحراسته له، ويقضي وطره من معصيته، يعينه ويستعين عليها بنعمه- من أقوى الدواعي إلى محبته، فلو أن مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟ فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه، يقطع إحسان ربه عنه.

فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه، وتعلقها بمحبة سواه.

وأيضًا، فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

تعالى يريدك لك، كما في الأثر الإلهي «عبدي كل يريدك لنفسه، وأنا أريدك لك» فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة، وهو معرض عنه مشغول بحب غيره، قد استغرق قلبه بمحبة سواه؟.

وأيضًا، فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولابد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوًا.

وأيضًا فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته؟.

وأيضًا فمطالبك- بل مطالب الخلق كلهم جميعًا- لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله من في السموات والأرض، كل يوم هو في شأن، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يسأل، ويغضب إذا لم يُسأل ، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى، فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه نفسه وقال: «**من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»[1] كما قيل: أدعوك للوصل تأبى، أبعث رسولي في الطلب، أنزل إليك بنفسي، ألقاك في النوم. وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟.

فهو أحق من ذُكر، وأحق من شكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد،

---

(١) سبق تخريجه.

وأبصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجـود من سئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قصد، وأعز من التجئ إليه، وأكفى من توكل العبد عليه، أرحم بعبـده من الوالدة بولدها، وأشد فرحًا بتـوبة التائب من الفاقـد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والـفرد فلا ند له، كل شيء هالك إلا وجـهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعـصى إلا بعلمه، يطاع فـيشكر، وبتـوفيقـه ونعمـته أطيع، ويُعصى فـيغفر، ويعـفو وحقه أضـيع، فهو أقـرب شهيد، وأجل حـفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مـفضية، والسر عنده علانيـة، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليـه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجـهه، وعجزت العـقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطرة والأدلة كلهـا على امتناع مثله وشـبهه، وأشرقت لنور وجـهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسموات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، «**لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليـه عمل الليـل قبل عـمل النهـار، وعـمل النهـار قبل عـمل الليل، حـجابه النور، ولو كـشفـه لأحرقت سبـحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[1] :

مـا اعتـاض باذل حبـه لسـواه من عـوض ولو ملك الوجـود بأسـره

فصل

وههنا أمر عظيم يجب على الـلبيب الاعتناء به، وهو أن كمـال اللذة والفرح والسرور، ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

---

(١) رواه مسلم (١٧٩)، وابن مـاجة (١٩٥، ١٩٦)، وعـبد الله بن أحمـد في «السنة» (٢/ ٤٦٢)، وابن منده في «الإيمان» (٢/ ٧٦٩)، وأبو يعلى (٧٢٦٢)، والروياني في «مسنده» (٥٥٥)، من حديث أبي موسى ﷺ.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه، والوصول إليه بكل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عرف هذا، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي وعاقل، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تذم إذا أعقبت ألمًا أعظم منها، أو منعت لذة خيرًا منها وأجلَّ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوتت أعظم اللذات والمسرات؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها، قال الله تعالى: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ [الأعلى:١٦، ١٧] وقال السحرة لفرعون لما آمنوا: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ [طه:٧٢، ٧٣].

والله سبحانه خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد، وأما هذه الدار فمنقطعة، ولذاتها لا تصفو أبدًا ولا تدوم، بخلاف الآخرة، فإن لذاتها دائمة، ونعيمها خالص من كل كدر وألم، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، مع الخلود أبدًا، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين، بل فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه بقوله: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ [غافر:٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلى غيرها، وأن الآخرة هي المستقر.

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة، ولذلك

خلقت الدنيا ولذاتها، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يذم تناولها، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة.

إذا عرف هذا، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها: هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه، كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**»[1] وفي حديث آخر: «**إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم**»[2] .

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر ﷺ عن النبي ﷺ في دعائه: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك**»[3] .

وفي كتاب «السنة» لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعًا: «**كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذ سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك**»[4] .

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفة الله سبحانه وتعالى ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

---

(١) رواه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجة (١٨٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٣٤)، وأحمد (٤/ ٣٣٢)، والطيالسي (١٣١٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧٢)، وابن حبان (٧٤٤١) من حديث صهيب رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجة (١٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٩)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٣) وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٨): رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي وهو ضعيف .اهـ. وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٢٦): هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى الرقاشي. اهـ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٤٨) برقم (١٢٣) عن محمد بن كعب القرظي وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤١٥٧)، من حديث أبي هريرة.

وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقد تقدم ذلك، وكان غيره يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب، يقول في حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ... فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

أفٍّ لدنيا إذا ما لم يكن ... صاحب الدنيا محبًّا أو حبيبًا

وقال آخر:

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها ... وأنت وحيد مفرد غير عاشق

وقال آخر:

اسكن إلى سكن تلذ بحبه ... ذهب الزمان وأنت منفرد

وقال:

تَشكّى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياه إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق، أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

والمقصود: أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلى لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله، وشربه،

ولباسه، ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلامًا أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودة بينهم في الحياة يحبونهم كحب الله ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢٨ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٨، ١٢٩]

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق. وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات، بمنزلة من قدم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلى هلاكه، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣].

قال بعض السلف في تفسيرها: كلما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمة[١] ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:٤٤، ٤٥].

وقال تعالى في أصحاب هذه اللذة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[المؤمنون:٥٥، ٥٦].

وقال في حقهم: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة:٥٥].

وهذه اللذة تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام، كما قيل:

مآرب كانت في الحياة لأهلها عذابًا فصارت في المعاد عذابا

(١) «تفسير القرطبي» (١/ ٢٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٣).

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعت كمالها، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر، ولابد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «**كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق**»[1].

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق، وما لم يعن عليها فهو باطل.

فصل

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم، بل هو أحمد أنواع الحب، وكذلك حب رسول الله ﷺ، وإنما نعني المحبة الخالصة، والتي تشغل قلب المحب وفكره وذكره بمحبوبه، وإلا فكل مسلم في قلبه محبة لله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما، فهذه المحبة هي التي تلطف وتخفف أثقال التكاليف، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان، وتصفي الذهن، وتروض النفس، وتطيب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرمة، وإذا بليت السرائر يوم اللقاء، كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا   سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب، وكذلك محبة كلام الله، فإنها من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن من أحب محبوبًا كان

---

[1] رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٦/ ٢٢٣)، وأحمد (٤/ ١٤٤)، والحاكم (٢/ ٩٥)، وصححه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي؟
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله» وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه؟. وقال النبي ﷺ يومًا لعبد الله ابن مسعود رضي الله عنه **«اقرأ علي»** فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال: **«إني أحب أن أسمعه من غيري»** فاستفتح فقرأ سورة النساء، حتى إذا بلغ قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ [النساء:٤١] قال: **«حسبك»** فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء[١].

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ، وهم يستمعون[٢]، فلمحبي القرآن من الوجد، والذوق واللذة، والحلاوة، والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل، ذوقه ووجده وطربه وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن كما قيل:

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر وبيت من الشعر ينشد تميل كالنشوان

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان، والمغرور يعتقد أنه على شيء.

ففي محبة الله وكلامه ورسوله ﷺ أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه، وكل حب سوى ذلك باطل، إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠)، وأبو داود (٣٦٦٨)، والترمذي (٣٠٢٥) من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه الدارمي (٣٤٩٣)، وابن حبان (٧١٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٥٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٤١٧٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/١٠٩)، وإسناده صحيح.

فصل

وأما محبة الزوجات: فلا لوم على المحب فيها، بل هي من كماله، وقد امتن سبحانه بها على عباده فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن قلبه إليها، وجعل بينهما خالص الحب، وهو المودة المقرونة بالرحمة، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر[(١)].

وفي الصحيحين من حديث جابر عن النبي ﷺ: أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها، وقال: «**إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه**»[(٢)].

ففي الحديث عدة فوائد:

منها: الإرشاد إلى التسلي عن المطلوب بجنسه، كما يقوم الطعام مقام الطعام، والثوب مقام الثوب.

ومنها: الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية، وهو قضاء وطره من أهله، وذلك ينقض شهوته، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح،

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (٥/١٩)، و«حلية الأولياء» (٤/١٢).

(٢) رواه مسلم (١٤٠٣)، والترمذي (١١٥٨)، وأحمد (٣/٣٣٠)، وابن حبان (٥٥٧٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥٤٣٥).

كما في سنن ابن ماجة مرفوعًا: «**لم ير للمتحابين مثل النكاح**»(١).

فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذي جعله الله دواء شرعًا، وقد تداوى به داود ﷺ .ولم يرتكب نبي الله محرمًا، وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته، ولا يليق بنا المزيد على هذا(٢).

وأما قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير النبي ﷺ في فراقها، وهو يأمر بإمساكها، فكلم رسول الله ﷺ أنه مفارقها ولابد، فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس: إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه، فإنه كان قد تبنى زيد قبل النبوة، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعًا عامًّا فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب: يا زينب! إن رسول الله ﷺ يخطبك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي، وقامت إلى محرابها فصلت، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه، وعقد له النكاح فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾ [الأحزاب:٣٧] فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها، فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك وتقول: أنتن زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات. فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب(٣).

ولا ريب أن النبي ﷺ كان قد حبب إليه النساء، كما في الصحيح عن

(١) رواه ابن ماجة (١٨٤٧)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٥٠)، وفي «الأوسط» (٣١٥٣)، والبيهقي (٧/ ٧٨)، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح رجاله ثقات (٢/ ٩٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٢٥).

(٢) هذا خبر باطل، ولا يليق بالأنبياء، وكان أجدر بابن القيم أن يضرب صفحًا عن مثل تلك الإسرائيليات الكاذبة، فانتبه!!

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٧)، والترمذي (٣٢١٣)، والنسائي (٣٢٥٢)، وأحمد (٣/ ٢٢٦)، والبيهقي (٧/ ٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣٩)، من حديث أنس ﷺ.

أنس عنه ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[1] هذا لفظ الحديث، لا ما يرويه بعضهم «**حبب إلي من دنياكم ثلاث**»[2]: زاد الإمام أحمد في كتاب «الزهد» في هذا الحديث: «**أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن**» **وقد** حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا: ما همه إلا النكاح. فرد الله سبحانه عن رسول الله ﷺ ونافح عنه فقال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:٥٤].

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر وتسرى بها.

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسع وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة[3]، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة[4]، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه فقال: «**عائشة**»[5] **وقال** عن خديجة: «**إني رزقت حبها**»[6].

فمحبة النساء من كمال الإنسان، قال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرها نساء»[7].

---

(١) قوله: في «الصحيح» يقصد في الحديث الصحيح لأن الحديث ليس في الصحيحين ولا في أحدهما، وقد سبق تخريجه.

(٢) ذكر كثير من أهل العلم أن زيادة (ثلاث) في الحديث لا تصح بل هو بدونها. منهم الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الرافعي، والعجلوني، والسيوطي، وانظر «كشف الخفا» (١/ ٤٠٥).

(٣) سبق بيان بطلان هذا الخبر.

(٤) رواه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (١٦٥٤)، والنسائي (٣٨٣٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) رواه مسلم (٢٤٣٥)، في كتاب «فضائل الصحابة» باب «فضائل خديجة أم المؤمنين»، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٧) رواه البخاري في كتاب «النكاح» باب «من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى» رقم (٥٠٦٩)، وبين القاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٩٠) أنه يشير إلى رسول الله ﷺ.

وقد ذكر الإمام أحمد رحمه الله أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم جلولاء[(١)] جارية كأن عنقها إبريق من فضة، قال عبد الله: فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون، وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء، بخلاف الأمة المشتراة.

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم في المسبية، بخلاف المشتراة، فقد ينفسخ فيها الملك، فيكون مستمتعًا بأمة غيره.

وقد شفع النبي ﷺ لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت، وذلك في قصة مغيث وبريرة لما رآه يمشي خلفها بعد فراقها ودموعه تجري على خديه، فقال لها رسول الله ﷺ: «**لو راجعتيه؟**» فقالت: أتأمرني يا رسول الله؟ فقال: «**لا، إنما أشفع**» فقال: لا حاجة لي به. فقال لعمه: «**يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغضها له؟!**»[(٢)] ولم ينكر عليه حبها، وإن كانت قد بانت منه، فإن هذا ما لا يملكه.

وكان النبي ﷺ يسوي بين نسائه في القسم ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك**»[(٣)] يعني: في الحب. وقد قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٩] يعني: في الحب والجماع.

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن، كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان، وكذلك علي فقد أتي بغلام

---

(١) جلولاء: بلدة على طريق خراسان، وقعت بها معركة شهيرة بين المسلمين والفرس، انتصر فيها المسلمون نصرًا عزيزًا مؤزرًا، وانظر: «البداية والنهاية» (٧/ ٦٩)، و«معجم ما استعجم» (٢/ ٣٩٠).

(٢) رواه البخاري (٥٢٨٣)، وأبو داود (٢٢٣١)، والنسائي (٥٤٣٢)، وابن ماجة (٢٠٧٥)، وأحمد (١/ ٢١٥)، والدارمي (٢٢٩٢)، من حديث ابن عباس.

(٣) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٥٣)، وابن ماجة (١٩٧١)، وأحمد (٦/ ١٤٤)، والدارمي (٢٢٠٧)، وابن حبان (موارد-١٣٠٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٢٠١٨).

من العرب وجد في دار قوم بالليل، فقال له: ما قصتك؟ قال: لست بسارق، ولكني أصدقك:

تعلقت في دار الرياحي خودة ... يذلُّ لها من حُسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب ... إذا افتخرت بالحُسن خافتها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتي ... أبيت وفيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا ... هو اللص محتومًا له القتل والأسر

فلما سمع علي بن أبي طالب ﷺ شعره رق له، وقال للمهلب بن رباح: اسمح له بها، فقال: يا أمير المؤمنين، سله من هو؟ فقال: النهاس بن عيينة، فقال: خذها فهي لك.

واشترى معاوية جارية فأعجب بها إعجابًا شديدًا، فسمعها يومًا تنشد أبياتًا منها:

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى ... طريرًا وسيمًا بعدما طر شاربه

فسألها، فأخبرته أنها تحب سيدها، فردها إليه، وفي قلبه منها.

وذكر الزمخشري في «ربيعه»[1] أن زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط:

أما في عباد الله أو في إمائه ... كريم يُجلي الهم من ذاهب العقل؟
له مقلة أما الأماقي قريحة ... وأما الحشا فالنار منه على وجل

فنذرت أن تحتال لقائلهما إن عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه، فبينا هي بالمزدلفة، إذ سمعت من ينشد البيتين، فطلبته، فزعم أنه قالهما في ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه، فوجهت إلى الحي، فما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه، وإذا المرأة أعشق له منه لها، فكانت تعده من أعظم حسناتها، وتقول: ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك الفتى والفتاة.

قال الخرائطي: وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان، فكتب الغلام إلى الجارية يومًا:

---

(١) هو كتاب «ربيع الأبرار» للزمخشري.

ولقد رأيتك في المنام كأنما عاطيتني من ريق فيك البارد
وكأن كفك في يدي وكأننا بتنا جميعًا في فراش واحد
فطفقت يومي كُله متراقدًا لأراك في نومي، ولست براقد

فأجابته الجارية تقول:

خيرًا رأيت وكل ما أبصرته ستناله مني برغم الحاسد
إني لأرجو أن تكون معانقي فتبيت مني فوق ثدي ناهد
وأراك بين خلاخلي ودمالجي وأراك فوق ترائبي ومجاسدي

فبلغ سليمان ذلك فأنكحها الغلام، وأحسن حالهما على فرط غيرته.

وقال جامع بن برخية: سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة: هل في حُبٍّ دهمنا من وزر؟.

فقال سعيد: إنما تلام على ما تستطيع من الأمر. فقال سعيد: والله ما سألني أحد عن هذا، ولو سألتني ما كنت أجيب إلا به.

فعشق النساء ثلاثة أقسام: قسم هو قربة وطاعة، وهو عشق امرأته وجاريته، وهذا العشق عشق نافع، فإنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح، وأكف للبصر، والقلب عن التطلع إلى غير أهله، ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله، وعند الناس.

وعشق هو مقت من الله وبعد من رحمته، وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه، وهو عشق المردان، فما ابتلي به إلا من سقط من عين الله، فطرد عن بابه، وأبعد قلبه عنه، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله، كما **قال** بعض السلف: إذا سقط العبد من عين الله، ابتلاه بمحبة المردان، وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت، فما أتوا إلا من هذا العشق، قال تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[الحجر:٧٢] .

ودواء هذا الداء: الاستغاثة بمقلب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره، والتعوض بحبه وقربه، والتفكر في الألم الذي يعقبه هذا العشق، واللذة

التي تفوته به، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب، وحصول أعظم مكروه، فإذا أقدمت نفسه على هذا وآثرته، فليكبر عليها تكبير الجنازة، وليعلم أن البلاء قد أحاط بها.

والقسم الثالث من العشق: عشق مباح، وهو الواقع من غير قصد كعشق من وصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد، فتعلق قلبه بها، ولم يحدث له ذلك العشق معصية، فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه، والأنفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه، ويجب الكتم، والعفة، والصبر فيه على البلوى، فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته، وتركه طاعة هواه، وإيثار مرضاة الله وما عنده.

فصل

والعشاق ثلاثة أقسام:

منهم من يعشق الجمال المطلق.

ومنهم من يعشق الجمال المقيد، سواء طمع في وصاله أو لا.

ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع في وصاله.

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف. فعاشق الجمال المطلق، يهيم قلبه في كل واد، وله في كل صورة جميلة مراد: فيومًا بحزوى، ويومًا بالعقيق ،وبالعذيب يومًا، ويومًا بالخُليصاء، وتارة ينتحي نجدًا وآونة شعب العقيق وطورًا قصر تيماء. فهذا عشقه أوسع، ولكنه غير ثابت كثير التنقل.

يهيم بهذا ثم يعشق غيره ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه، وأدوم محبة له، ومحبته أقوى من محبة الأول، لاجتماعهما في واحد، ولكن يضعفهما عدم الطمع في الوصال، وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم، وحبه أقوى، لأن الطمع يمده ويقويه.

فصل

وأما حديث «**من عشق فعف**»(١) فهذا يرويه سويد بن سعيد، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه.

قال ابن عدي في كامله(٢): هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد.

وكذا ذكر البيهقي وابن طاهر في الذخيرة والتذكرة، وأبو الفرج بن الجوزي وعده في الموضوعات(٣)، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله، وقال: أنا أتعجب منه.

قلت: والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عباس موقوفًا عليه، فغلط سويد في رفعه.

قال محمد بن خلف بن المرزبان: حدثنا أبو بكر الأزرق، عن سويد به، فعاتبه على ذلك، فأسقط ذكر النبي ﷺ، وكان بعد ذلك يُسأل عنه فلا يرفعه، ولا يشبه هذا كلام النبوة(٤).

وأما رواية الخطيب له عن الزهري: حدثنا المعافى بن زكريا، حدثنا قطبة بن الفضل، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدثنا سويد بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعًا(٥)، فمن أبين الخطأ، ولا يحمل هشام، عن أبيه، عن عائشة مثل هذا عند من شم أدنى رائحة من الحديث، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله ﷺ قط، ولا حدث به عروة عنها، ولا حدث به هشام قط.

وأما حديث ابن الماجشون، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعًا، فكذب على ابن الماجشون، فإنه لم يحدث

---

(١) سبق تخريجه. (٢) (٣/ ٣٦٢)، برقم (٨٠٢).

(٣) الحديث ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٧٧١)، برقم (١٢٨٦).

(٤) انظر «كشف الخفا» (٢/ ٣٤٥).

(٥) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٤٧٩).

بهذا، ولا حدث به عنه الزبير بن بكار، وإنما هذا من تركيب بعض الوضاعين، ويا سبحان الله! كيف يحتمل هذا الإسناد مثل هذا المتن؟ فقبح الله الوضاعين.

وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي[١] من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى، عن ولده عبد الرحمن بن عوف، عن ابن نجيح، عن مجاهد مرفوعًا، وهذا غلط قبيح، فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبي نجيح، لا سيما وقد رواه في كتاب «الاعتدال» عن يعقوب هذا، عن الزبير، عن عبد الملك، عن عبد العزيز، عن ابن أبي نجيح، والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية، ذكره أبو الفرج في كتاب «الضعفاء»[٢] .

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، وما صححه ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه، ويرجع في التصحيح إليه، ولا من عادته التسامح والتساهل، فإنه لم يصف نفسه له، ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف، ويروي منها الغث والسمين والمنخنقة والموقوذة، قد أنكره وشهد ببطلانه.

نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنده. وقد ذكر أبو محمد بن حزم[٣] عنه: أنه سئل عن الميت عشقًا، فقال: «قتيل الهوى لا عقل له ولا قود»[٤] ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ، فقال: ما شأنه؟ قالوا: العشق، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق. فهذا نفس: «**من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد**» .

ومما يوضح ذلك: أن النبي ﷺ عد الشهداء في الصحيح[٥]، فذكر المقتول

---

(١) «العلل المتناهية» رقم (١٢٨٨).

(٢) لم يذكر ابن الجوزي «محمد بن جعفر الخرائطي» في «الضعفاء» وقد بحثت فيه فلم أجده، والذين ذكرهم اثنان: ١- محمد بن جعفر المدائني.
٢- محمد بن جعفر بن عبد الله بن جعفر «مجهول» وانظر «الضعفاء» (٣/٤٧).

(٣) «طوق الحمامة» (١/٢٥٧).

(٤) العقل: الدية   القود: القصاص.

(٥) أشرنا من قبل أن المؤلف يقصد بقوله: في «الصحيح» أي: الحديث الصحيح.

في الجهاد، والمبطون، والحرق والنفساء يقتلها ولدها، والغرق، وصاحب ذات الجنب، ولم يذكر منهم من يقتله العشق[1].

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكتم لله، لكن العاشق إذا صبر وعف مع قدرته على معشوقه، وآثر محبة الله وخوفه ورضاه، وهذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:٤٠، ٤١] وتحت قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

فنسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه، وابتغى بذلك قربه ورضاه.

تمت الفتوى الشريفة بحمد الله وعونه، فجزاه الله تعالى خير الجزاء، وأسكنه أعلى فراديس الجنان، وأصوله وفروعه وأشياخه وتلامذته، وأعاد علي وعلى ذريتي من بركاتهم، وحشرنا في زمرتهم في جنة الفردوس تحت لواء سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان، والحمد لله رب العالمين.

❑ ❑ ❑

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «**الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله؛ المطعون شهيد، والغَرِق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجَمْع شهيد**» رواه أبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٥)، وابن ماجة (٢٨٠٣)، وأحمد (٥/٤٤٦) من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٣٣)، و «أحكام الجنائز» (ص ٢٩).



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

